رِحْلَةُ الشَّائِقِ

رِوَايَة

دار السرد للطباعة والنشر والتوزيع
العراق - بغداد - شارع المتنبي

٨١٣ / ٩٠٥٦٣
ق ٢٦٩
القاضي ، رافد حميد فرج
رحلة الشائق / رافد حميد فرج القاضي
ط١ :- بغداد : دار السرد ، ٢٠٢٦ .
١٧٥ ص ؛ ١٤ × ٢١ سم .
١- القصص العربية - العراق - أ- العنوان .
رقم الإيداع
١٩٢٧ / ٢٠٢٦
المكتبة الوطنية / الفهرسة أثناء النشر

ISBN : 978-9922-8049-5-8

هاتف: ٠٧٧٣٥٩٢٩٤٨٤ / ٠٧٨٧١٩٧٨٥٢٠
بريد إلكتروني: alrtyu44@gmail.com
رياض داخل: Facebook

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

رحلة الشائق

رافد حميد فرج القاضي

رواية

٢٠٢٦

الإهداء

إلى كل من آمن بالرحلة قبل أن تبدأ...وأن الرحلة الحقيقية ليست بالأقدام وحدها، بل بالقلب، وأن الحب والإخلاص هما أعظم معجزات الحياة...

الى من يعرف أن الطريق ليس مجرد خطوات، بل دروب من التجارب والأحلام...

أهدي لكم روايتي « رحلة الشائق » ، رواية حقيقة من الواقع العراقي لازال شخوصها احياء ينتظرون بشارات فرح علّها تكون نافذة لرؤية العالم بعين مختلفة...وصوتًا للصمت الذي يختبئ في أعمق الزوايا...وشعلة أمل في الليالي الحالكة...ومن كان سبباً في ولادة هذه الكلمات لكم جميعاً ...

نبض الضياء

الشائق يسير

والطريق ينثر النور...

قريةُ فَرَج

يتجذّرُ الحُبُّ في التُّراب

قرية فرج تقع على أطراف مدينة كربلاء، ترتوي من مياه نهر الفرات الصافية، حيث تتراجع طرق الأسفلت وتبدأ الحقيقة بكل براءتها وبساطتها ، هنا، في هذا الركن من الأرض، يمتد ريف القرية الذي لم يعرفه أحد إلاّ من عاشه أو تنفّس هواءه، ريف لا يمكن للأقلام أن تصفه بالكامل، لأن الأرض فيه أصدق من الكلمات والنخيل أحن من السطور، والسماء أكثر نقاءً من أي لوحة رسمها إنسان.

كل شيء هنا حي ، التراب يحمل في طياته ذاكرة آلاف السنين يتنفس مع كل خطوة تخطوها، ويروي قصص أولئك الذين أحبّوا وعاشوا وصبروا على صعوبة الأيام ، الهواء نفسه يمرّ خفيفًا بين الأشجار، يحمل رائحة المطر والخصوبة، ويرسل رسائل صامتة لكل قلب مستعد أن يسمعها ، الماء، في نهر الفرات الذي يمر بالقرية، لا يجري فقط في مجراه، بل يروي الأرض والقلوب يهمس للحياة

ويخبرها بأن الخير ما زال موجودًا، وأن الحكايات التي يكتبها التاريخ، تظلّ حية في جريان المياه ، النباتات هنا ، ليست مجرد أوراق وجذوع ، بل كائنات تحمل الحكمة والصبر ، النخيل يرفع رؤوسه بفخر، يراقب السماء، وينقل للطيور ملاذًا وأغنية، بينما الحقول المفتوحة تتمايل مع الرياح، وكأنها تحتفل بكل يوم جديد بكل شمس تشرق، وكل قطرة مطر تهبط على التراب حتى الأصوات لها حضورها الخاص : خرير الماء، صدى خطوات العابرين بين الطرق الترابية، همسات الطيور، صوت الريح بين النخيل، وحتى صمت الليل له نغمة تشبه صلاة، تعيد للروح بعض نقاءها القديم ذاك النقاء الذي يعرفه الإنسان حين يكون وحيدًا مع نفسه ومع الطبيعة.

في القرية، يصبح الوقت شيئًا مختلفًا؛ لا يُقاس بالساعات والدقائق بل بالمشاعر التي تمرّ، والذكريات التي تترسخ، والقلوب التي تتعلّم أن ترى العالم بعين الصبر، بعين الامتنان، بعين الحب الناس هنا يعيشون ببطء، ليس كسذاجة، بل كفهم عميق لكل نبضة حياة لكل حدث صغير يحمل معنى أكبر مما تبدو عليه الأمور.

الليل في قرية فرج له قصته الخاصة؛ النجوم تتلألأ كما لو كانت شعلة أمل في الظلام، والهواء يحمل رائحة التراب المختلط بالندى فينخفض الزائر إلى صمت داخلي، صمت يملأه شعور بالطمأنينة والأمان، وكأن الكون كله يتنفس مع قلبه ، أما النهار، فهو لوحة حية : أشعة الشمس ترقص على الماء، تلمع على سعف النخيل تتسلل بين زوايا البيوت الطينية، لتوقظ كل روح، لتذكرها بأن الحياة تستمر، وأن الجمال موجود لمن يفتّش عنه بصدق.

هنا، يصبح الحب جزءًا من كل شيء : الحب للطبيعة، للحياة للآخرين، وحتى للحظات الصامتة التي لا يسمعها أحد ، يصبح كل زائر، مهما كان غريبًا، جزءًا من هذا المكان، يحمل معه شيئًا من نقاءه حين يغادر ، وعندما يغيب، يبقى صدى خطواته بين الأشجار، بين الحقول، بين نهر الفرات، كأنه لم يذهب أبدًا، كأن الروح نفسها تعرف أن بعض الأماكن لا تفارق من يلمسها قلبه.

قرية فرج ليست مجرد قرية ، هي تجربة حياة كاملة، متسربة في كل شيء من التراب إلى السماء، من الماء إلى الهواء، من النباتات إلى الأصوات ، هي دعوة صامتة لكل قلب يريد أن يتعلم معنى الصبر

والسكينة، والانتماء ، كل من يزورها، مهما ابتعد، يعود بها في قلبه، وفي ذاكرته، وفي روحه، لأنها مكان لا يُنسى، مكان لا يمكن أن يترك أثره إلا في الداخل، في أعماق الإنسان، حيث يلتقي الإنسان بالحقيقة، ومعنى أن يكون حيًا بالفعل.

قرية فرج ليست مجرد نقطة على خارطة الريف، بل هي الحدود التي تنتهي عندها خيالات المدن وتبدأ فيها الحقيقة هناك، حين يتراجعُ آخرُ خيطٍ من الأسفلت وتتوقّف الضوضاء عن مطاردة الهواء، يولد عالمٌ آخر... عالمٌ لا يعرفه إلاّ من عاشه أو إنتبه لصمتِهِ، ومن شرب من مائه ومن سار في طرقاته التي تَحمِل من الذاكرة أكثر ممّا تحمله الخطى.

هذه قرية ليس مساحةً جغرافية، بل مزاجٌ روحي والأرضُ لا تُكتب... بل تُقرأ ، النخيلُ لا يُوصف... بل يُصاب القلبُ بحنّينٍ حين يراه والسماءُ لا تنعكس على سطح الماء... بل تنغرس في الروح ، من يدخل هذه القرية يشعر أن العالم كلّه كان في عجلةٍ من أمره إلاّ هذه البقعة التي أختارت أن تنتصر، للطمأنينة، وللأشياء التي تصنع معنى العيش...هنا، يُعرف الإنسان قبل إسمه.

في قرية فرج، لا يَسأل أحد : مَن أنت...؟

بل يَسألون : كيف أنت...؟

فالناس يعرفون بعضهم بالنبض، بالخطوة، بطريقة حملهم لأكياس رز العنبر ذو الرائحة الزكية ، وبطريقة مغادرتهم أبواب البيوت يُفتَح الباب قبل أن يصل الطارق، وتُعَدّ المائدة قبل أن يُقال : « جئناكم ضيوفاً ».

الضيافة ليست عادة...إنها عقيدة ، حتى الأطفال يعرفون أن المارّ على الطريق ليس غريباً، فالغريب الوحيد هو الذي يعبر المكان دون أن يحمل في عينيه شيئاً من المحبة.

الأرض هي التي تتكلم...ترابُ القرية هنا ليس صامتاً ، يمشي عليه الناس فيتذكر قصص أقدامٍ مضت قبلاً ويتشرّب ماء الشتاء فيصنع ربيعاً يشبه القصائد ، الترابُ حيّ...وحياته تظهر في القمح حين يكبر، وفي الرمان حين يشتعل لونُه وفي النخلة حين ترفع ذراعَيها إلى السماء كأنها تكبّر للضوء ، والماء...يا للماء هنا...!

ليس سائلاً فقط ، بل ذاكرة ، الخيط الذي يسيل في الجداول يحملُ أسماء الذين شربوا منه، وصور الذين غابوا وأماني الذين جاءوا إلى

الدنيا في هذه القرية وسيغادرونها وهي ما تزال كما هي : بسيطة نقية، ثابتة كأمٍّ تعرف أن أبناءها سيضيعون إن تغيّرت.

في قرية فرج، الهواء ليس مجرد هواء...إنه خليط من رائحة النخيل وتنهدات الأرض، وبقايا المطر وصوت البعيد الذي يأتيك قبل أن تراه ، هواء المدن متعب ، متوتر، يحمل ضجيج الإسفلت وضيق الإسمنت أمّا هنا، فالنَفَسُ عميق الشهقة الأولى تشبه إعتذاراً طويلاً من الروح لإنها تأخرت كثيراً في العودة ، أصوات لها ذاكرة...حتى الأصوات هنا ليست عابرة ، صياح الديك ليس نداءً للصباح فقط...بل إستعادةٌ لزمن لم يتغير ، نباح الكلاب في الليل يشبه حارساً يعرف أن هذه الأرض ليست أرضاً بلا أصحاب.

جريان الماء في السواقي صوت مهدٍ قديم وهدير الريح بين سنابل الحنطة كأنه رسالةٌ من الغيم ، لا شيء يمرّ دون أثر، ولا شيء ينتهي حقاً...فكل صوت يعود وكل حكاية تُروى مرات عديدة حتى تصبح جزءاً من ذاكرة المكان.

الناس الذين يصنعون معنى البساطة في قرية فرج ليست فقر أدوات...بل غنى قلوب ، والنساء يخبزن العجين وكأنهن يصنعن

وطناً صغيراً داخل كل رغيف الرجال يعودون من الزرع ووجوههم تحمل لون الغروب، وتحت أظافرهم خرائط الأرض التي عملوا عليها. الأطفال يركضون وكأنهم يختبرون حدود السماء ، لا يملك الناس هنا الكثير من الرفاهية...لكنهم يملكون شيئاً لا تشتريه المدن... الطمأنينة التي تجعل الليل قصيراً، والصباح جميلاً، والخبز أطيب من كل طعام ، وحين تتكلم القرية عن نفسها لو نطقت لقالت : هنا...ينتهي صخب المدينة، ويبدأ الهدوء ، هنا...لا يحتاج الإنسان إلى تبرير وجوده ، فالأرض تعرفه، والسماء تحفظهِ والناس يحبّونه لأنه واحدٌ منهم لا أكثر... ولا أقل وحين تغادرها... تبقى فيك ، مهما بدا بسيطاً يعلق في الداخل تغادره، لكنك تشعر أنه لم يغادرك ، تصل إلى المدينة فتفهم أن الحياة هناك تقوم على السرعة وأن الناس يمشون وكأنهم يلحقون بشيء ضائع ، أمّا في قرية فرج، فالإنسان يعيش مع ما وجده... لا مع ما فقده ، تكتشف فجأة أن القرى تشبه الأمهات لا تطلب لا تشكو لكنها تُظِلّك كلما اشتدّت عليك الطرق.

ليست قرية فرج مكاناً فقط إنها مرآة الإنسان الأول... الإنسان الذي عرف أن الأرض أمّ وأن الخبز نعمة، وأن الهواء رحمة، وأن الحياة يمكن أن تكون بسيطة دون أن تكون ناقصة ، من يمر بها قد يرحل عنها لكن من يعيشها... لن يقدر على توديعها أبداً لأن شيئاً منها سيظلّ يرافقه حفنة تراب، نسمة هواء ظل نخلة، صوت ماء أو مجرد ذكرى لحظة شعر فيها... أنه عاد إلى نفسه.

النخيل هنا ليس مجرد شجر، بل عمود حياة يمتد على جانبي الطريق كحراس صامتين، جذوعه صلبة، وسعفه يلوّح في الهواء كما لو كان يبارك كل خطوة يخطوها السائر وفي الصباح ، حين تشرق الشمس تتلألأ قطرات الندى على سعفه كحبات الماس فتشعر أن النخيل يبتسم لك.

كل نخلة هنا لها روح ، وكل سعف يهمس لك بأخبار الليل وعن الطيور التي نامت على الأغصان ، وعن النسيم الذي مرّ من هنا وعن الأطفال الذين لعبوا تحت ظلها أمس ، بين النخيل تتسلل رائحة البرتقال وتفوح في أرجاء القرية كما لو كانت دعوة للعيش ببطء، للاستنشاق، للتذكر إنها رائحة تجعل القلب يلين، والعقل

يهدأ، والروح تغني بصمت والبرتقال هنا ليس مجرد ثمار، بل حكاية ليس في القرية ما يُرى بعينٍ واحدة... كل شيءٍ هنا يُرى بعين القلب أولًا...النخيل، هذا الواقف منذ قرون، لم يكن يوماً مجرّد شجرٍ يمدّ ظلاله على المارّة ، بل كان دائماً عموداً للحياة، وسارية لروح الأرض وعلى جانبي الطريق يقف كجنود يعرفون أن حراستهم ليست ضد عدو، بل من أجل الذاكرة، من أجل ما تبقّى من طمأنينةٍ في هذا العالم المرهَق.

جذوع النخيل قاسية كأنها صُنعت من صبر الأمهات، وسعفها يلوّح لكل عابر كما لو أنه يبارك خطواته أو يخفف عنه عناء المسير وفي الصباح، حين تضع الشمس أول خيوط الذهب على وجه الأرض، تتلألأ قطرات الندى على السعف كأن السماء تركت مجوهراتها هنا، على عجل، قبل أن تنهض.

هناك لحظات تشعر فيها أن النخيل يبتسم لك لا تراها بعينك لكنك تشعر بها في صدرك... إحساس غامض يشبه يداً تربت على كتفك وتقول لك : « لا تخف... ما دام في الأرض نخيل فالأمان لا يزال ممكناً ».

لكل نخلة حكاية، هذه حملت أسرار العاشقين الذين جلسوا تحت ظلها ، وتلك خبأت رسائل الصغار الذين أعتقدوا أن النخلة تحفظ الوعد وأخرى شهدت دموعَ رجلٍ كان يمشي وحيدًا، ثم عاد فوجد نفسه أقوى.

النخيل هنا شاهدٌ لا يشي، يقرأ الليل والريح والوجوه، ويظل واقفًا ثابتاً، كما لو أنه يحفظ إتزان العالم ، وبين النخيل، تأتي رائحة البرتقال كأنها غمزةٌ من الريح، أو دعوة خفية للتأمل ، هذه الرائحة ليست مجرّد إنعطاف حلو في الهواء، بل نداء، كأن الأرض نفسها تقول لك : أهدأ قليلا : « تنفّس... تذكّر أنك حي ».

حين تفوح رائحة زهر البرتقال في أرجاء الريف، يلين القلب، ويهدأ العقل، وتبدأ الروح بالغناء بصمت...غناءٍ لا يسمعه إلاّ الذين يجيدون الإصغاء للمشاعر حين تختبئ في الهواء.

هنا، البرتقال ليس مجرد ثمار، إنه ذاكرة كاملة، تنمو على أغصان الشجر كما تنمو القصص في أفواه الجدّات ، تتذكر معه شتاءاتٍ بعيدة، مدافئ طينية، وسهراتٍ كان فيها الكبار يتحدثون، والصغار يسرقون البرتقال الحلو ويفرّون بضحكاتٍ خفيفة ،تتذكر يداً قدمت

لك برتقالة يوم كنت حزيناً... فابتسمت دون أن تدري ، تتذكر أن الحياة مهما ضاقت ، تبقى قادرة على مناداة القلب بشيء صغير إسمه العطر...أو اللون... أو الذكرى ، في هذه القرية ، كل شيءٍ يبني علاقة سرية معك : الطريق الذي تعرفه قدميك أكثر مما تعرف وجهك...النسيم الذي يأتيك من خلف الأشجار كأنه رسالة بلا حروف...الضوء الذي يتوزع فوق الأرض كأنه يكتب يومًا جديداً على صفحة غير مرئية.

القرية ليس مكاناً...إنه زمنٌ بطيء، يرفض الركض، يرفض السرعة يرفض أن يتحول الإنسان إلى آلة.

ريف القرية، يتذكّر الناس أنهم بشر، وأن أرواحهم تحتاج إلى مساحة كي تتنفس وحين تسير بين النخيل وتتسلل رائحة البرتقال إلى صدرك، تشعر أنك دخلت صلاةً بلا سجادة، بلا مسبحة، بلا صوت...صلاةٌ تؤدى بالمشي فقط، وبالإنصات : إنصات لخشخشة السعف...لخطواتك على التراب لهمس الشجر... لضحكة طفلٍ مرّ من هنا قبل ساعة...لأنين فلاحٍ أنهكه العمل لكنه ما زال

يغني وهو يحفر الأرض ، الريف مدرسة لا تعطي شهادات، لكنها تمنحك شيئًا أهم : تعطيك قلبًا يعرف الفرق بين الغنى والإمتلاء.

بين الإزدحام والصلة والضجيج والحياة تعطيك حكمةً لا تُدرَّس : أن الشجر لا يسأل الكثير...يكفيه أن تُحبّه يكفيه أن تمرّ بجانبه أن تلمس جذعه أن تنظر إليه نظرة إحترام تشبه نظرة الإبن لأبيه وحين تنهي طريقك بين النخيل وتخرج من بين النسائم المحمّلة برائحة البرتقال، تحمل شيئًا لا يُرى... شيئًا يسكن صدرك ويكبر : طمأنينة خفيفة، ولا أعرف ماذا نسميها... ربما إسمها : روح القرية أو بركة النخيل أو ترتيلة البرتقال أو ربما هي خليطٌ من كل ذلك...نكهةٌ لا تتكرر ولا تشبه إلا المكان الذي كُتبت منه: ريف القرية الذي يتكلم شجره وتتنفس أرضه وتحفظ نخيله ما ننساه نحن.

حكاية أطفال يجمعونها بأيديهم الصغيرة، ويحملونها إلى المنزل فيضحكون عند كل سقوط لإحدى الثمرات، فيكبرون وهم يعلمون أن رائحة الأرض، ورائحة الثمار، هي أول دروس السعادة وعند نهايات البيوت ، حيث ينحني الجدار لتفتح الحياة مكانها ينمو الحرمل أخضر فاتح، يعلو قليلاً عن الأرض، وكأن جذوره تتشبث

بالذكريات ، تزينه وردة صغيرة بيضاء منقطة باللون الأصفر الفاقع كنجمة صغيرة على صفحة الأرض وكل بيت من بيوت الريف يحتفظ بالحرمل كما يحتفظ الإنسان بأغلى ذكرياته صامت حارس وشاهد على مرور الزمن ، الهواء هنا... يا للهواء...!

نسيم القرية لا يشبه نسيم المدن إنه رقيق، يمر بين الأشجار، يلمس الوجه وكأنه يداعب الطفل، يأخذ عنك التعب، يخفف عنك الهموم، ويتركك مع نسيم جديد يحمل رائحة الأرض ، البرتقال الطين، والنباتات، وحتى رائحة الخبز المتأهب للخروج من التنور الهواء هنا يحمل رسالة سلام قديمة، رسالة تقول : « اهزم عجلة الزمن، عش اللحظة اشتم الأرض، احب الطريق...».

أما الأرض... فلا شيء يمكن أن يقارن بطيبها ، في الريف، لا تبدأ الحكايات بالكلمات، بل تبدأ بالتراب ، هناك حيث يُولد الصباح على مهل، وتتكئ الشمس على أطراف الحقول قبل أن ترتفع، تتشكل أولى ملامح الإنسان. ليس للطفولة في الريف ألعابٌ كثيرة، لكن لها ثروة لا تنفد الأرض ومن هذه الأرض تبدأ الحكاية...كان الأطفال يجمعون الثمر بأيديهم الصغيرة، كأنهم

يجمعون قطعاً من الفرح لا من الأشجار ، كل ثمرة تسقط منهم كانت سبباً للضحك، لا للحسرة.

كانوا يكبرون وهم يتعلمون درساً لا تقوله المدارس : السعادة شيء بسيط، قد يتدحرج من يدك، لكنك تضحك وتلتقطه من جديد وعند أطراف البيوت الطينية، حيث يلين الجدار فجأة وينحني وكأنه يفسح للحياة مكاناً للمرور، ينبت الحرمل...أخضرَ خفيفاً كأمل ثابتاً كذاكرة شجيرة صغيرة، لكنها تشبه خزائن الأسرار ، لها وردة بيضاء مرقطة بالأصفر، كنجمة منسية على صفحة الأرض.

لم يكن الحرمل مجرد نبات؛ كان جزءاً من هوية البيوت، كما لو أن كل بيت يضعه على عتبته ليقول للتاريخ : هنا مرّ أناس عرفوا كيف يصنعون البركة من القليل.

في القرية، حتى الهواء له شخصية مختلفة ، له سلوك، له نبض، له روح ، نسيم المدن يمرّ بك كزائر مستعجل أما نسيم الريف فهو صديق قديم يعرفك ويهتم بك ، يمر بين الأشجار يلمس الوجوه كما لو أنه يد الأطفال التي كانت تجمع الثمار يأخذ عنك التعب يطرد شيئاً من الحزن، ويمنحك راحة لا تعرف كيف جاءت...؟

يحمل عطراً لا يمكن تفصيله : قليلٍ من رائحة البرتقال، شيءٍ من الطين، لمسةٍ من زهر البردي، ورائحة خبز يوشك أن يرى النور خارج التنور ، ذلك الهواء ليس مجرد حركة... إنه رسالة. رسالة عتيقة كتبتها الأرض قبل ألف عام وما تزال تُقرأ اليوم : « لا تركض خلف الزمن... إصنع وقتك بنفسك ، عش اللحظة أعشق الأرض أحب الطريق...».

وهنا، عند هذا الحد الفاصل بين ضجيج العالم وصمت الطبيعة تقف الأرض ، ذلك الكائن العظيم الذي لا يتغير مهما تغيرت الحياة فوقه.

الأرض في القرية ليست مجرد مساحة تُزرع، إنها كائن حي يربّي الإنسان كما تربّي الأم أطفالها ، إنها تعطي دون حساب، وتسامح دون شروط، وتحتفظ بكل خطوة وكل ضحكة وكل دمعة.

الأرض هنا ليست طيباً فحسب... إنها أصل الطيبة ، في كل قبضة تراب حكاية، وفي كل شق صغير بين الحصى ذكرى وفي كل نبتة صغيرة درسٌ جديد عن الصبر، عن النمو، عن أن الحياة ليست سباقاً، بل رحلة طويلة تحتاج إلى قلبٍ يعرف كيف يُصغي ، في

المدن، يركض الناس بحثاً عن معنى ، وفي الريف، يولد المعنى وحده دون أن يبحث عنه أحد.

هناك، كل شيء يمتلك روحاً : الجدران التي انحنت من كثرة الحكايات، الشجيرات الصغيرة التي تحرس البيوت النسيم الذي يحمل رسائله، الحقول التي تهمس بالأمل، والطرقات التي تعرف أسماء المارين عليها جيلاً بعد جيل ، وحين تعود من الريف، لا تعود كما دخلت ، تحمل معك شيئاً لا يمكن للمدن أن تمنحه : يقيناً صغيراً بأن الإنسان لا يحتاج الكثير ليكون سعيداً يكفيه أن يشم رائحة الأرض، وأن يلمس ثمرة، وأن يعرف أن هناك مكاناً في هذا العالم لا يزال يقدّر البساطة كما يقدّر القلب فالريف ليس مساحة جغرافية...بل مساحة شعورية ، مساحة تعيد ترتيبك من الداخل وتعيد تعريفك للعالم، وتذكرك بأن السعادة التي نبحث عنها في كل مكان، كانت منذ البداية تحت أقدامنا...في أول قبضة تراب، وفي أول شجرة ، وفي أول نسمة هواء صافٍ هبطت على وجوهنا الصغيرة...هناك، يبدأ الإنسان ومن هناك يعود كلما أثقلته الحياة رطوبة التراب بعد المطر تحمل الحياة في كل حبة، كل حبة تراب

تتنفس تروي وتحتضن بذرة جديدة...الأرض هنا تصنع البشر قبل أن يلمسوا الزرع ، خضارها ممتلئ، سمين وألوانه متدرجة بين الأخضر الداكن والأصفر الفاقع ، السنابل تتحرك مع الريح مثل بحر من الذهب، تتمايل كأنها ترقص إحتفالاً بالنسيم ، كل سنبلة تحمل وعداً : أن الحياة مستمرة ، وأن العيش ممكن رغم كل شيء وفي الصباح الباكر ، يبدأ حفل جديد ، تسمع أصوات الطيور زقزقة العصافير، هديل الحمام، صراخ الدجاج وكلها تنسجم في سيمفونية لا يسمعها إلاّ من يقدر صمت الريف الطيور تملأ المكان بالحركة واللون فالعصافير تتقافز على الأغصان والحمام يحلق في السماء الصافية، ويبدو أن السماء نفسها تتنفس معهم ، السماء الزرقاء هنا شفافة، نظيفة، كأنها صفحة نقية تنتظر أن يكتب عليها الإنسان حياته ، وجوه الناس هنا... يا لها من وجوه...!

وجوه كرغيف الخبز...دافئة ، مشققة من الشمس، صادقة وكل إبتسامة فيها حياة، وكل خط فيها حكاية ترى في عيونهم الطيبة التي تصنعها الأرض، الصبر الذي تمنحه الحياة، والهدوء الذي يرسله الطريق وجوههم مليئة بالعطاء، حتى لو لم يكن لديهم الكثير، فهم

يوزعون ابتسامة قبل الطعام وحضن قبل الكلمة، وروح قبل الحاجة أما الخبز... فلا يمكن أن يُنسى ورائحة الخبز من التنور الطيني مزيج الطين المحترق والحطب والدقيق تجعل القلب يخفق قبل المعدة النساء يعجنّ العجين بخفة، يضعنه في التنور، ويداعبن النار لتستيقظ وعند خروج الرغيف من التنور، يصبح الهواء نفسه مشبعًا بالخير، ويشعر كل مارٍ وكأنه تلقّى هدية من الريف والطهي على الحطب له طعم خاص : بطيء، مدروس، ونكهته تحمل حرارة اليدين والروح والطريق هنا ليس مجرد طريق، بل سجلّ الرحلة غباره ليس مزعجًا، بل شهادة على مرور كل من سلكه ، ترى آثار القدمين، آثار العجلات القديمة، وطبعاً آثار الريح التي تقلب الغبار وتلعب به كأنها ترسم خريطة غير مرئية ، حين تمشي، تشعر أن الطريق نفسه يتحدث معك، يخبرك قصص المسافرين الأشجار الطيور، والسماء.

كل خطوة هناك تضيف إليك شيئاً، تأخذ منك شيئًا، وتتركك في منتصف الرحلة بين الحنين والدهشة وكل هذه التفاصيل ، النخيل البرتقال، الحرمل، السنابل، الخضار وجوه الناس الطين، الخبز

الحطب، غبار الطريق، الطيور، السماء الهواء – تصنع معجزة العشق الحقيقية ، عشق الأرض، عشق الطريق، عشق كل ما هو بسيط ونقي وصادق عشق يجعل من الرحلة نفسها هدفًا، ومن الخطوة الواحدة ذاكرة ومن كل شيء حولك حكاية تُحكى بلا كلمات وفي نهاية اليوم حين تغرب الشمس، ويبدأ الظلام في مدّ جناحه كل شيء يهدأ النسيم يخف، الطيور تستكين، النخيل يهمس مع الريح بصوت أخير، والحرمل يلمع في الضوء الخافت والريف يتركك واقفًا في منتصف الطريق، تشعر أن قلبك أصبح أخف وروحك أنقى وعقلك أكثر وضوحًا.

تدرك أن المعجزة لم تكن في الوصول إلى أي مكان، بل في كل لحظة عشتها هناك بين التراب، والنار، والهواء، والسماء، والوجوه... كل لحظة تنبض بالحياة ، كل لحظة تحمل العشق، كل لحظة تجعلك أكثر إنسانية وهكذا، يظل الطريق، الريف، النخيل، البرتقال الحرمل، وجوه الناس، الخبز، الطيور السنابل، والطين، شاهدين على أن العشق الحقيقي يبدأ من الأرض، وينتهي عند قلب من يمشي عليها وتُنطق البساتين بلغتها الأولى لغةٌ لا تحتاج إلى نحوٍ ولا صرف

يكفي أن تضع يدك على التراب لتفهم كل شيء : معنى الصبر ومعنى الخصب، ومعنى أن يكون الإنسان امتداداً لجذورٍ لا تراه لكنها تحمل روحه كما يحمل الجذر جذع النخلة.

ذلك الريف الملاصق للفرات يشبه أمهاتنا : ثابت، عطوف صامت، لكنه يفيض حياة ، تشتمّ رائحته فتشمّ الطين الممزوج بتاريخٍ كامل ، رائحةٍ لا تعرفها المدن حتى لو تزيّنت بكل عطورها.

أبناء القرية وحدهم يعرفون هذه الرائحة، يحفظونها كأنها شكل كفّ أمهاتهم، ودفء صدورهم، ووجوه جدّاتهم حين يتهيّأن للفجر.

البيوت هناك متواضعة، لكنها تُشبه أصحابها : لا تكذب جدرانها من الطين، أبوابها من خشب يعرف مواسم الريح، ونوافذها مفتوحة على الشمس كأنها تتعلّم منها معنى الأمل وحين تمشي في طرقاتها الترابية، تشعر أن الغبار يعرفك بالاسم، وأن النخيل الذي يلوّح لك ليس شجراً عادياً، بل أرواح الأجداد وهي تبارك خطاك.

أما الماء... آه الماء هناك...يلمع في الأخاديد الصغيرة كأنه شظايا قمر انكسرت على وجه الأرض وتتبع مجراه فتسمع همسه كأنه يروي قصص العشّاق الذين مرّوا هنا قصص الرحّالة الذين حملوا

أحلامهم على ظهورهم، وقصص الفقراء الذين لم يملكوا إلا قلوبهم...ثم انتصروا بها ومع ذلك، ليست الأرض وحدها هي الحكاية فهناك دائماً مسافر، إنسان يخرج من بيته وفي داخله سؤال لا يعرف له جواباً : لماذا نمشي...؟

ولماذا نشتهي الطريق أكثر من الوصول...؟

في تلك الدروب، تبدأ معجزة العشق الذي يقال في الأغاني، ولا الذي يُسجّل على الأوراق بل العشق الذي يربط الإنسان بمكانه كرباط سريّ لا تُفكّ عقدته ، عشق الأرض، وعشق الطريق وعشق الوجوه التي تشبه الصباح حين تكون مُتعبة ومضيئة في آن الرحلة هناك ليست سفراً بل أختبار روح في كل خطوة تُنقص من همومك وتضيف إلى قلبك.

كل ظلّ نخلة يذكّرك بأنك لست وحيداً، وأن هذا الطريق مرّ عليه من قبلك آلاف الذين كانوا يبحثون عن معنى وجودهم، فوجدوه بين تراب وأعمدة ضوء ، وحين يغيب النهار، يوشك العالم هناك أن يتحوّل إلى مسرحٍ أسطوري والقمر يخرج من بين سعف النخيل كأن الليل يرفعه بيدين من نور.

صوت الماء يصبح أوضح، وصوت الريح يصير حكمة وتبدأ الذكريات تتحرّك داخلك كأنها طيور تبحث عن مكانها وفي تلك اللحظة تحديداً، تفهم العشق الذي لا يحتاج شخصاً، بل يحتاج طريقاً ، العشق الذي لا يبدأ من القلب، بل يبدأ من قدمٍ تطأ تراباً أحبّها قبل أن تتخذه موطئاً.

العشق الذي يهديك الأرض قبل أن تهديها كلماتك ، هناك، على أطراف المدينة، في الريف الذي لا يكتبه أحد... تولد المعجزة معجزة أنك بعد كل هذا التعب، وكل هذا المشي، وكل هذه الأسئلة، تكتشف أنك لم تكن تبحث عن وجهٍ أو مكان... بل كنت تبحث عن نفسك...؟

تعود من الرحلة محمّلاً بالضوء، كأن الطريق غسل روحك بماء الفرات ، تعود وفي عروقك نبض جديد، وفي صدرك حكاية لا تُروى إلا لمن يعرف قيمة التراب حين يتحوّل إلى قلب.

وبرغم كل ما تراه، يبقى سؤال واحد يسكنك : هل كنتَ تمشي على الطريق...أم كان الطريق هو الذي يمشي فيك... ؟

تعود، وكأن الزمن قد أهدى عروقك نبضاً جديداً بعد طول إنتظار وكأن الريح حملت لك سرّ الأرض وهو يهمس في شراييناك بأن كل خطوة تحمل قصة، وكل حجر على الطريق يروي سرّ الكون.

الصدر الذي إعتاد أن يثقل بثقل الأيام، صار الآن مستودعًا لحكاية لا يُمكن أن تُروى إلا لمن يعرف قيمة التراب حين يتحوّل إلى قلب ينبض بالصدق وهنا، في صمت الروح، يولد السؤال الذي يطارده الإنسان منذ الأزل : هل كنت تمشي على الطريق... أم كان الطريق هو الذي يمشي فيك...؟

الطرق ليست مجرد امتداد من تراب أو حجر ، هي مرايا الزمن تعكس ضباب الأحلام وشظايا الماضي ، وعند السير على الطريق تعتقد أن خطواتك هي التي تحركك، لكن الحقيقة أكثر عمقًا.

الطريق يعلمك الصبر؛ كل حجر على الأرض يحمل حكمة، كل شجرة ظليلة تهمس لك بأن الراحة ليست في الوصول، بل في السير.

الرياح التي تمر بك لا تأتي صدفة، هي رسائل من الأرض تُذكّرك بأن كل سقوط ليس فشلاً، بل درساً مكتوباً في لغة الطبيعة

وأحياناً، وفي اللحظة التي تتوقف فيها لتلتقط أنفاسك، تسمع صدى خطواتك السابقة، كأنها تحكي لك قصص الذين سبقوك والأحلام التي تحطمت، والأمل الذي أضاء الظلام.

ترى انعكاسات الماضي في البرك الصغيرة على جانب الطريق كمرآة تطل على ذاتك القديمة، وتدرك أن كل تجربة كانت بمثابة حجر أساس يبني شخصيتك الجديدة، روحك التي لم تعد كما كانت ، وهناك فرق عميق بين أن تمشي على الطريق وبين أن يمشي الطريق فيك ، عندما يمشي الطريق فيك، تتلاشى الحدود بين الذات والعالم ويصبح كل حجر، وكل غصن، وكل نسيم عابر جزءًا منك، وكل خطوة ليست إلاّ إنعكاساً لرحلة داخلية عميقة.

تشعر حينها بأنك مجرد موجة من طاقة تتحرك بانسجام مع الكون وأنك جزء من لوحة طبيعية أكبر منك، حيث الرياح، الشمس الأمطار، وحتى الظلال التي ترقص على الأرض تعزف لحنًا واحداً لحن حياتك ، في هذه اللحظات، لا تحتاج لأن تتساءل عن الهدف؛ كل شيء يحدث في وقته، وكل شيء يجد مكانه المناسب في قلبك قبل أن تجده في خارجه ، وتبدأ الروح في التوسع، ويتحول

الطريق من مجرد ممر إلى كائن حي، يهمس لك، يقودك، ويعلمك أن معنى الحياة ليس في الوصول فقط، بل في التجربة نفسها.

الطرق ليست دائمًا مفهومة أو سهلة ، أحياناً... تصادف إنعطافات حادة ، وجسوراً متهالكة، وأودية عميقة تبدو بلا نهاية. هنا يختبر الإنسان ، هل سيواصل السير بشجاعة، أم سيستسلم للظلام الذي يبدو أكثر واقعية من النور...؟

لكن الحقيقة المؤكدة أن الطريق، مهما اشتدت خطورته، لا يترك أحداً إلاّ وقد غيّر شيئًا في داخله، ولو كان مجرد شعور بالدهشة أمام جمال الكون ، وعند عبورك لهذه المسارات، ترى أن كل عثرة كانت بمثابة نافذة تطل على ذاتك، وكل سقوط يفتح لك باباً للإرتفاع.

الوديان العميقة تعلمك التواضع، والصخور الصلبة تعلمك الثبات والأنهار التي تعترض مسارك تعلمك المرونة، وكأن الطبيعة كلها تتحدث إليك بلغة الروح، بلغة لا يفهمها إلاّ من أختبر الطريق حقًا.

الطريق ليس دائماً مضاءً، وهناك أوقات يكون فيها صامتاً، لكنها ليست خالية من المعنى ، في صمت الطريق، تسمع دقات قلبك ترى ذكرياتك تتناثر كالغيوم في سماء صافية، وتدرك أن كل لحظة كانت بمثابة درس، كل حجر كنت تظنه بلا جدوى كان يبني روحك، يبني نوافذ جديدة في داخلك لتطل على العالم برؤية أكثر عمقاً.

الضوء والظل يلعبان دوراً فريداً في رحلة السير: الضوء يكشف الطريق أمامك، ويبين لك الأماكن الآمنة، أما الظل فيكشف لك أعماق نفسك، المخاوف المطمورة، الرغبات غير المحققة، والأحلام التي لم تُولد بعد ، وعندما تتعلم الانسجام مع كلاهما ، تدرك أن الحياة ليست فقط عن الإنتصارات ، بل عن فهم كل ما يقودك نحوك ، وفي نهاية كل رحلة ، عندما تتوقف لتلتقط أنفاسك، ترى الطريق والكون كياناً واحداً، والروح والوجود إمتداداً لبعضهما البعض تتعلم، مع مرور الوقت لا مع مرور الأيام فقط، أن الحياة ليست خطًا مستقيمًا يصل بين نقطتين، ولا سباقًا تُقاس قيمته بسرعة الوصول، بل هي ذلك الامتداد الخفي من التجارب التي

تتسلل إلى روحك دون استئذان، وتعيد تشكيلك بصمتٍ عميق. تدرك أن كل لحظة، مهما بدت عابرة أو ثقيلة أو حتى مؤلمة، تحمل في داخلها بذرة معنى، تنتظر فقط أن تُصغي لها، أن تمنحها شيئًا من حضورك، لا حكمك.

تتعلم أن الخيبة ليست نهاية، بل شكل آخر من أشكال الفهم، وأن الفراغ ليس نقصًا، بل مساحة تُهيّئك لاستقبال ما لم تكن مستعدًا له من قبل ، هناك، في تلك المساحات التي ظننتها قاحلة، يبدأ شيء جديد بالنمو، شيء لا يُرى بالعين، لكنه يُحسّ بالقلب، كأن الحياة تعيد ترتيبك من الداخل، دون أن تُعلن ذلك.

وحين تمضي أكثر، وتخفّ عنك ضوضاء التوقعات، تكتشف أن الطريق لم يكن يومًا خارجيًا بالكامل، بل كان امتدادًا لما فيك ، كل منعطف يعكس ترددك أو شجاعتك، كل صعود يشبه محاولاتك للنجاة، وكل سقوط يحمل بصمتك الخاصة ، هناك، يحدث ذلك اللقاء الغامض... التقاء الذات بالكون، حيث لا تعود تفصل بين ما هو داخلك وما هو خارجك، حيث تصبح شهيقك امتدادًا للهواء، ونبضك صدى لإيقاع الأرض.

تصير مرآة... لا تعكس ملامحك فقط، بل تعكس ما حولك أيضًا، وتدرك أن الطبيعة لم تكن يومًا صامتة، بل كانت تتحدث بلغة أعمق من الكلمات ، في انحناءة غصن، في سقوط ورقة، في عناد حجرٍ في وجه الريح... ترى نفسك ، وتفهم، لأول مرة، أن الانسجام لا يعني السكون، بل ذلك التوازن الدقيق بين الحركة والهدوء، بين الفوضى والنظام، بين ما تفهمه وما تعجز عن تفسيره. وفي هذا الانسجام يولد الجديد... لا كحدثٍ مفاجئ، بل كنضوجٍ بطيء، كفكرةٍ كانت تنام في أعماقك، كحلمٍ كان يتشكل دون أن تدرك، كنبضة قلبٍ مختلفة، أكثر وعيًا، أكثر صدقًا. تنشأ الحكايات هناك، في تلك المسافة بين ما كنت عليه وما أصبحت حكايات لا تُروى للجميع، بل فقط لمن عرف أن التراب ليس مجرد غبار يُداس، بل ذاكرة حيّة، تختزن آثار الخطوات، وتحفظ سرّ العابرين.

تتعلم أن تمشي... لا لتصل، بل لتفهم. أن تُبطئ أحيانًا، لا لأنك عاجز، بل لأن بعض المعاني لا تُلتقط في العجلة ، أن تنظر حولك

لا لتبحث عن شيء، بل لتدرك أن كل شيء كان حاضرًا منذ البداية، لكنك لم تكن حاضرًا بما يكفي لرؤيته.

كل خطوة تصبح درسًا... في الصبر حين يتأخر ما تريد، في الحب حين تعطي دون مقابل، في التعاطف حين ترى الألم في وجوه الآخرين كأنه جزء منك، وفي معرفة الذات حين تكتشف أن أكثر ما كنت تهرب منه... كان في الحقيقة أنت.

ومع اقترابك من تلك اللحظة التي يسميها البعض نهاية، وتراها أنت اكتمالًا، يتجلى السؤال القديم، لا كفكرة فلسفية، بل كحقيقة تعيشها بكل تفاصيلك : هل كنت تمشي على الطريق... أم كان الطريق هو الذي يمشي فيك...؟

حينها، يتلاشى الفرق ، لا تعود تبحث عن إجابة، لأنك تصبح أنت الإجابة ذاتها ، تدرك أن الطريق لم يكن مجرد مسافة تُقطع، بل تجربة تُعاش، وأنك لم تكن عابرًا فيه، بل كنت جزءًا منه، كما هو جزء منك ، وفي تلك اللحظة، يتسع إدراكك ليشمل كل ما مضى... كل تعب، كل انتظار، كل فرح عابر، وكل وجعٍ ظننت أنه لن يزول ، ترى الصورة كاملة، لا كأحداث متفرقة، بل كنص

واحد، متماسك كأن حياتك كلها لم تكن إلا قصيدة حيّة، كتبتها خطواتك دون أن تدري، ونقشتها الأيام على جسد الأرض وسكن صداها في روحك.

تدرك أن الرحلة لم تنتهِ... لأنها لم تكن يومًا طريقًا إلى نهاية، بل كانت طريقًا إلى عمقٍ أكبر، إلى وعيٍ أوسع، إلى إنسانٍ يتشكل باستمرار، كأنه منحوت ببطء من أقدار وتجارب لا تعد ولا تحصى. كل لحظة، كل لقاء، كل ضحكة، وكل دمعة، وكل صمت، كانت حجرًا يُبنى به هذا الكائن الجديد، هذا النسخة من نفسك التي لم تعد مجرد جسم يسير في المكان، بل روح تبحث عن أفقها الخاص عن صدقها الخاص، عن صداها الذي لا يضيع.

وتدرك أيضًا أن ما مضى من أيام، مهما بدا لك عابرًا أو صعبًا أو محاطًا بالظلال، لم يكن عبثًا، بل كان ضروريًا... ضروريًا لتعلّم الصبر، لتعلّم كيف يلتقط الإنسان الضوء من بين الشقوق، وكيف يجد الأمل حتى في أعمق لحظة من اليأس...؟

فالأحداث التي اعتقدت يومًا أنها مجرد حكايات عابرة، هي في الحقيقة صفحات من كتابك الداخلي، كتبته الأيام بأقلامها الملونة بالحزن والفرح، بالغربة والحنين بالفقد والانتصار.

تبدأ أن ترى نفسك مختلفًا؛ ليس كما كنت قبل الرحلة، وليس كما كنت تحلم أن تكون، بل كما أنت حقًا، بكل تناقضاتك، بكل جروحك، بكل قواك التي اكتشفتها في أصعب اللحظات ، وكلما تقدمت في الطريق، تكتشف أن الخوف الذي كان يحدّك من قبل لم يكن إلا دعوة لتجاوز نفسك، وأن الألم الذي شعرت به لم يكن عقابًا، بل معلمًا صامتًا يفتح لك أبوابًا لم تكن تعرف أنها موجودة.

وهكذا، تصبح خطواتك ليست مجرد عبور لمسافات، بل محادثة مع نفسك، مع ذاك الجزء العميق الذي يعرف كل شيء عنك، والذي ربما كنت تخاف مواجهته ، تمشي، نعم... ولكنك تمشي وأنت تنظر إلى الداخل بوعي، وأنت تسمع صدى كل ما عشته في قلبك قبل أن يسمعه العالم ، وكل خطوة، مهما كانت صغيرة، تحمل في طياتها معنى، تحمل درسًا، تحمل فرصة لتكون أصدق مع نفسك ومع الآخرين، لتمنح للحياة حضورها الكامل فيك.

الرحلة، في جوهرها، ليست عن الوصول إلى نقطة محددة، بل عن التحول الداخلي الذي يحدث في صمتك، في انكساراتك، في محاولاتك الفاشلة والناجحة على حد سواء ، كل تجربة، مهما كانت قاسية أو بسيطة، تترك أثراً على روحك، تفتح نافذة جديدة على فهم أعمق للحياة، على رحابة قلبك، على قدرة قلبك على الحب على الصفح، على الانتظار، وعلى الانطلاق من جديد.

وهكذا، لم تعد الحياة سؤالًا تبحث له عن جواب، بل أصبحت تجربة يُعاش كل جزء منها ، لم تعد مجرد أيام تتكرر، بل لحظات تتراكم، لحظات تعلّمك أن تكون حاضرًا، أن تسمع أكثر، أن ترى أكثر، أن تشعر أكثر ، تصبح قادرًا على تقدير الأشياء الصغيرة: ضحكة صادقة، شمس تشرق على وجهك، رائحة تراب بعد المطر لمسة حانية، كلمة طيبة، صمت يعطي معنى أكثر من الكلام.

تدرك، في النهاية، أن الطريق لم يكن يومًا إلى نهاية، لأنه لا نهاية للوعي، ولا نهاية للفهم، ولا نهاية للتحول ، وأن كل خطوة تخطوها كل قرار تتخذه، كل ألم تتقبله، وكل فرح تحتضنه، يشكل جزءًا من

كيانك الذي أصبح أكثر نضجًا، أكثر حكمة، وأكثر استعدادًا لأن يعيش الحياة، لا أن يهرب منها أو يحاول فهمها فقط.

تمشي... وهذه المرة، تمشي وأنت تعرف أن كل خطوة ليست فقط نحو الأمام، بل نحو الداخل أيضًا، نحو قلبك، نحو روحك، نحو ذلك المكان فيك الذي لم يعرفه أحد من قبل، حتى أنت ، وتمضي الرحلة، بلا نهاية، لأنها كانت منذ البداية دعوة لتصبح إنسانًا كاملًا، إنسانًا واعيًا، إنسانًا يعي أن الحياة ليست مجرد مسار، بل هي حضور كامل، تجربة صافية، رحلة صامتة لكنها عميقة، لا تُنسى، وتستحق أن تُعاش بكل ما لديك من صدق ووفاء للحياة لنفسك وللعالم من حولك.

بيتُ العدالةِ

الحسين « عليه السلام »

في كُل نبضَة...

في قرية فرج ، حيث تمتد البساتين على مد النظر وتتشابك الأشجار كأنها أيدٍ تمتد للمساعدة، حيث يغسل المطر التراب ويملأ الطيور بالفرح، وتغيب الشمس وراء الاشجار لتترك ألوان الغروب تتسرب في الأفق، كانت تعيش عائلة كبيرة القلب، عائلة القاضي أمتلكوا ما هو أغلى من كل شيء... قلوباً صافية وروحاً عاشت الحب قبل أن تتحدث عنه، وفهمت أن الإنتماء للحسين « عليه السلام » هو حياة كاملة تُعاش بكل تفاصيله.

لم تُرضع هذه العائلة أبناءها اللبن وحده، بل أرضعتهم حب أهل البيت « عليهم السلام ».

هذا الحب لم يكن طارئًا في قلب القاضي، ولا شعورًا عابرًا تولّد مع الأيام، بل هو امتدادٌ لجذورٍ عميقة ضاربة في الأرض، بدأت مع جده الشيخ فرج وامتدت إلى والده ، حيث لم يكن الحديث عـن

حبّ الحسين وأهل البيت « عليهم السلام » مجرد كلمات تُقال بل كان نهج حياة يُعاش بكل تفاصيله.

منذ الصغر، تعلّم القاضي أن حبّ الحسين ليس دمعةً في موسم ولا شعارًا يُرفع في الطرقات، بل هو موقف، وسلوك، وأثر يظهر في التعامل مع الناس قبل أي شيء آخر ، كان يرى في والده صورةً حيّةً لهذا الحب، حين يقدّم المعروف دون انتظار مقابل، وحين يُعامل الناس بلينٍ ورحمة، وحين يكون الصبر خياره في الشدائد والإحسان لغته في كل المواقف ، تلك المشاهد اليومية كانت أبلغ من أي درس وأعمق من أي خطبة.

أما جده الشيخ فرج السرحان « رحمه الله » ، فقد كان يغرس هذا الحب في القلوب كما تُغرس النخلة في أرضٍ طيبة؛ بهدوء، وثبات ويقين بأن ما يُزرع اليوم سيثمر غدًا ، كان يربط بين حبّ أهل البيت « عليهم السلام » والعمل الصالح، فيُعلّم أن القرب منهم لا يكون بالكلام فقط، بل بالفعل الذي يُرضي الله، وبالقلب الذي لا يحمل إلا الخير كان يؤكد أن من أحبّ الحسين « عليه السلام »

لا يمكن أن يظلم، ولا يمكن أن يقسو، ولا يمكن أن يخذل إنسانًا محتاجًا.

وهكذا نشأ القاضي وهو يدرك أن هذا الحب هو مسؤولية قبل أن يكون شعورًا، وأنه طريق طويل يبدأ من تهذيب النفس، ويمرّ بخدمة الناس، وينتهي بترك أثرٍ طيب في كل من نلتقي بهم ، تعلّم أن العمل الصالح ليس شيئًا منفصلًا عن هذا الحب، بل هو ترجمته الحقيقية؛ فكل يدٍ تمتد بالعطاء، وكل كلمةٍ طيبة، وكل موقف إنساني، هو انعكاس لذلك النور المزروع في داخله ومع مرور الزمن لم يبقَ هذا الإرث حبيس القلب، بل تحوّل إلى سلوكٍ يومي، يظهر في أبسط التفاصيل : في احترام الكبير، ومساندة الضعيف والوقوف إلى جانب الحق، وخدمة الزائرين، وإكرام الضيف، وحفظ كرامة الناس ، صار هذا الحب ميزانًا يزن به أفعاله، وبوصلةً توجه خطواته في الحياة.

إن ما ورثه القاضي من والده وجده لم يكن مالًا ولا جاهًا، بل كان إرثًا أعظم : إرث القيم ، إرث المحبة الصادقة، التي لا تعرف التزييف ولا تنحصر في وقت أو مكان ، إرث يعلّمه أن الإنسان يُقاس

بقدر ما يُعطي، لا بقدر ما يملك، وبقدر ما يُحسن، لا بقدر ما يقول ، وهكذا، يستمر هذا الحب جيلاً بعد جيل، لا كحكاية تُروى، بل كحياة تُعاش ، فكل من تربّى على هذا النهج، يحمل في داخله شعلةً من نور الحسين« عليه السلام »، يُضيء بها دربه ويمنح بها الدفء لمن حوله، ليبقى هذا الحب حيًا... في القلوب وفي الأفعال، وفي أثرٍ لا يزول ، الحب الذي لا يُقاس بالكلمات بل يُترجم إلى أفعال يُكتب على وجوههم، ويُشهد له في كل حركة وصمت ، في هذه البقعةٍ ، يظنّها العالم هامشية لكنها في الحقيقة قلب نابض لا يراه إلاّ من إقترب كانت الأرض تتكلم بلغتها الخاصة ، البساتين تمتد على مدّ النظر كأنها صفحات مفتوحة من كتاب قديم كتبه المطر، وكل شجرةٍ فيها تشبه حكمةً عريقة تمدّ أغصانها كأيدٍ حانية، لا لتأخذ بل لتعطي ، الطيور هناك لا تغنّي فقط، بل تشهد على دورة حياة كاملة : ولادة، موسم، صبر، ثم ثمرة تأتي بقدرٍ من السماء ، وفي المساء، حين تغيب الشمس خلف البساتين وتترك خطوطاً من ذهبٍ وطمأنينةٍ على صفحة الأفق يشعر العابر أن قلبه يُغسل كما تُغسل الأرض بعد غيمٍ كثيف.

في هذا المكان وُلِدت حكاية عائلة القاضي، حكاية ليست عن البيت ولا عن عدد النوافذ فيه ، ولا عن الثياب المعلقة على الحبال ولا عن الأيادي المتعبة من العمل ، بل عن شيء أعمق، شيءٍ لا يُرى لكنه يبني الإنسان أكثر مما تبنيه الجدران : النيّة الطيبة، والروح الصافية، وحبّ أهل البيت « عليهم السلام » الذي يشبه نبعاً لا يجفّ مهما طال الزمن.

كانت هذه العائلة، تُشبه شجرة الرمان التي تنبت في أرضٍ قاسية لكنها تُعطي ثمراً يفوق ما حولها جمالاً وطعماً رغم في جيوبهم مالٌ كثير، لكن في صدورهم كنزٌ لا يُشترى ...فالإنتماء للحسين « عليه السلام »... إنتماءٌ لا يُنطق فقط ، بل يُعاش ولم تُرضع الأم أبناءها اللبن وحده ، كانت تُرضعهم شيئاً أعمق من الغذاء...الإيمان وحين كان الأطفال يكبرون، كانوا يتعلمون أن الثواب ليس كلمة تُردد، بل خطوة تُقطع لزيارة أو خدمة أو مساعدة وأن الحسين « عليه السلام » ليس حدثاً تاريخياً، بل طريقاً يمشي فيه القلب قبل القدمين.

كبر الأبناء وهم يشاهدون الأب وقبله الجد يفتح باب البيت قبل شروق الشمس، يستقبل عابر السبيل بلا سؤال، ويقاسم الغريب طعامه وكانوا يرون الأم تجمع قلوب أولادها قبل أن تجمع صحون الطعام تعلمهم أن الإنسان لا يُقاس بثيابه بل بما يتركه من دفءٍ في نفوس الآخرين.

في المواسم التي يشتدّ فيها الحزن على الحسين « عليه السلام » يتحوّل البيت إلى خيمة فيها بوح، وفيها دموع لا تُبكي ضعفاً بل تُبكي وفاءً وفي ذكرى الفرح، يتحوّل البيت إلى مضيف مفتوح تُقدَّم فيه الأطباق لا لتُشبع البطون فقط، بل لتُذكّر الضيوف أن يد الحسين « عليه السلام » تمتد لكل فقير، وأن كرم أهل البيت « عليهم السلام » ليس رواية تُحكى بل سلوك يُمارَس.

كان الأطفال يفهمون الإنتماء دون أن يشرحه لهم أحد ، يفهمونه من طريقة جلوس الأب مع الضيوف، من طريقة الأم وهي تمسح على رأس يتيم، من صوت الجد وهو يحكي عن كربلاء كأنّه كان هناك، من دمعة الجدة حين تسمع إسم العباس « عليه السلام » وتشعر بأن ساقية الكرامة ما زالت تجري في عروقها ومع مرور

السنوات، تعلّم أبناء عائلة القاضي أن القرية التي يعيشون فيها ليس مجرد أرض، بل مدرسة وأن البساتين ليست مجرد أشجار بل دروس في العطاء وأن الفقر ليس نقصاً، بل إمتحاناً يكشف معدن الإنسان وأن أغلى ما في هذه الدنيا هو أن تكون خفيفاً على الناس، ثقيلاً عند الله ، كبروا وهم يدركون أن الإنتماء للحسين « عليه السلام » لا يعني تعليق راية فقط ولا حضور مجلس ثم العودة إلى العادات نفسها ، الإنتماء للحسين « عليه السلام » يعني أن يصبح قلبك منارة وصوتك شهادة وخطوتك صدقة وسلوكك أخلاقاً تشبه ماء الفرات حين صافاه العباس « عليه السلام » بيده فلم يشرب ، يعني أن تقف مع المظلوم ولو كلّفك ذلك الكثير أن تُعطي، ولو لم تبقَ إلا لقمة ، أن تُسامح، ولو ضاق صدرك أن تكرم الضيف، ولو أحتجت إلى ما لديك ، أن تترك أثراً، حتى لو لم يعرف أحدٌ إسمك.

كانت حكاية هذه العائلة حكاية بيوتٍ من الطين لكنها محاطة بهيبةٍ لا يملكها أهل القصور ، حكاية أرواح تعبت من الحمل لكنها لم تتعب من العطاء ، حكاية وجوه سمراء تشرب الشمس نهاراً

وتحتضن القمر ليلاً ، حكاية أقدام أعتادت السير نحو كل مجلسٍ حسيني، حتى صار الطريق يعرف خطواتهم كما يعرفون رائحة الأرض بعد المطر ومع مرور الوقت ، صار أهل القرية يقولون: « بيت القاضي ليس بيتاً بل أرض خصبة تنبت منها الطيبة ».

وصار إسمهم مرتبطاً بما تركوه في القلوب قبل ما تركوه في الدفاتر وفي نهاية هذه الحكاية، يبقى شيء واحد واضحاً : أن البيوت لا تُعرَف من جدرانها، بل من روحها وأن العائلات لا تُقاس بما تملك بل بما تمنح وأن الإنتماء للحسين « عليه السلام » لا يُعلَّم... بل يُتوارَث كالنَفَس يُولد مع الأطفال ويكبر معهم، حتى يصبح كل واحدٍ منهم مرآةً صغيرة تعكس نوراً كبيراً وهكذا...في ذلك الريف البعيد بين البساتين والأنهار والطرقات الطينية وُلدت حكاية عائلةٍ لم تبحث عن المجد... فوجدها المجد ولم ترفع صوتها... فسمعتها القلوب ولم تطلب مكاناً تحت الضوء... لأن نورها كان يأتي من الداخل هذه هي حكاية الإنتماء حين يكون حياة والحب حين يكون فعلًا والإنسان حين يكون إبن الحسين « عليه السلام » قبل أن يكون إبن الأرض... منذ الصغر، تعلم الأبناء أن الحب الحقيقي

للحسين « عليه السلام » ليس شعارات تُرفع أو شعور عابر بل هو ممارسة يومية في كل لحظة من حياتهم في المشي، في الكلام في الإبتسامة في مساعدة الآخرين، وفي إحترام كل إنسان يلتقونه.

القاضي كان مدرسة حية لأبنائه كان يجلس معهم صباحاً، قبل أن يخرجوا للعمل في البستان، يحكي لهم قصص أهل البيت « عليهم السلام » ، ويروي مواقف الحسين « عليه السلام » في كربلاء شجاعته في مواجهة الظلم صبره على الألم، كرمه، عدله ومحبته للناس جميعاً.

كان بيت القاضي كبيراً، ولكن لا يملك أبواباً منقوشة بترف المدن ولم تكن أرضه تُضاء إلاّ بقناديل الزيت ومع ذلك، كان الداخل إليه يشعر كأنه يخطو إلى عالم آخر عالمٌ تُسكِنه السكينة ويغمره دفء الحكايات التي لا تموت ، في ذلك البيت، حيث تتدلّى عناقيد العنب على السقف الخشبي وتنمو نبتات النعناع قرب الحوض الطيني، تعلّم الأبناء معنى الحب... لا حبًّا يُقال، بل حبًّا يُعاش.

منذ صغرهم ، كان القاضي يزرع في قلوبهم حبّ الحسين « عليه السلام » كما يزرع البذور في تربة البستان.

كان يرى أن الحب ليس شعاراً ولا هتافاً عابراً يُقال في موسم ويُنسى في آخر، بل هو منهج حياة، ومسار طويل يبدأ من الداخل قبل أن يظهر للخارج.

كان يقول لهم : يا أولادي : الحسين « عليه السلام » ليس ذكرى، بل طريقة في المشي، وصوت في الكلام، وراحة تُمنح لمن يحتاج، ويد تُمدّ قبل أن تُسأل، وإحترام تُهديه لكل روح يخلقها الله.

بعد منتصف النهار، وبعد أن يعود الجميع من دوام المدرسة، وقد حمل كلٌّ منهم شيئًا من التعب وشيئًا من الحكايات الصغيرة التي لا تُروى كاملة، يأخذون قسطًا يسيرًا من الراحة، كأنهم يهيّئون أرواحهم لشيءٍ أعمق من مجرد استعادة النشاط ، ومع ميل الشمس نحو الغروب، حين يبدأ الضوء باللين، وتصبح السماء أكثر حنانًا تحلّ ساعةٌ ليست كغيرها... ساعة التعليم الأولى.

كان الأبناء يخرجون إلى الفناء، بخطواتٍ خفيفة، تتبعها أرواحٌ ما زالت معلّقة بين ضجيج المدرسة وهدوء البيت. هناك، حيث النسيم البارد يلامس وجوههم برفق، كأنه يوقظ فيهم إحساسًا خفيًا، كانوا يجلسون في دائرةٍ غير مكتوبة، تنتظمها الفطرة قبل أي ترتيب.

وفي قلب ذلك المشهد، كان القاضي يجلس تحت شجرة الرمان العتيقة، تلك التي شهدت مواسم كثيرة، وحفظت بين أغصانها أسرار الأيام ، لم تكن مجرد شجرة، بل كانت كأنها شريكة في الدرس، تظلّلهم بصمتها، وتستمع كما يستمعون، وربما تفهم أكثر.

يبدأ القاضي حديثه لا بصوتٍ عالٍ، بل بنبرةٍ تشبه الهمس الذي يصل إلى القلب قبل الأذن. لم يكن يعلّمهم كما تُعلَّم الدروس، بل كان يأخذهم في رحلة، رحلةٍ تمتد من فناء البيت إلى عمق التاريخ ومن الحكاية إلى المعنى. كان يحكي لهم قصص أهل البيت « عليهم السلام » ، لا كوقائع بعيدة، بل كحياةٍ ما زالت تسري كأنها تحدث الآن، في هذه اللحظة.

كان حين يذكر كربلاء، لا يذكرها كحادثةٍ انتهت، بل كنبضٍ لا يزال يخفق في الصدور، كجرحٍ تعلّم الناس منه معنى الكرامة وكضياءٍ دلّهم على طريق الحق. كانت كلماته تُحيي فيهم صورًا لا تُرى، وتجعلهم يشعرون بأنهم ليسوا مستمعين فقط، بل شهودٌ على معنىٍ أكبر.

تتسع عيون الأبناء، لا من الدهشة فحسب، بل من ذلك الشعور الغريب الذي يجمع بين الحزن والفخر، بين الدموع والقوة ، كانوا يتعلّمون دون أن يشعروا أنهم يتعلّمون، ويتربّون دون أن يُقال لهم إنهم يُربَّون ، ومع كل قصة، كان القاضي يغرس فيهم شيئًا لا يُرى... قيمةً، موقفًا، أو بذرةً ستنمو يومًا في مواقف الحياة ، كان يربط بين ما حدث في كربلاء وما يعيشونه هم، ليجعلهم يدركون أن الحق ليس زمانًا، وأن الموقف ليس حكاية تُروى، بل اختيار يُعاش.

وحين تقترب الشمس من الغياب، ويبدأ الضوء بالانسحاب ببطء يكون الدرس قد انتهى... لكن أثره لا ينتهي ، ينهض الأبناء وهم يحملون في داخلهم شيئًا أثقل من الكلمات وأخف من أن يُرى شيئًا سيبقى معهم، يكبر فيهم، ويقودهم حين تتشابه الطرق.

وهكذا، لم يكن ذلك الفناء مجرد مساحة في بيت، ولم تكن تلك الساعة مجرد وقتٍ عابر... بل كانت بداية تشكّل، وبذرة وعي ومحرابًا صغيرًا تُبنى فيه القلوب على حبٍّ لا يزول، وعلى معنىً لا ينتهي.

يحكي عن الحسين « عليه السلام »: عن شجاعته التي لم تُثنها السيوف، وعن صبره الذي لم يكسره العطش، وعن عدله الذي لم يتبدّل يوماً، وعن محبته التي لم تُطفِئها خيانة الأقربين ولا حرّ الهجير.

كان الأطفال يجلسون حوله صامتين، لا لأنهم صغار لا يتكلمون بل لأن الحكاية تأتيهم كالماء... يحتاجون أن يشربوها قبل أن يتعلموا الكلام وحين ينتهي المجلس ، يخرجون معه إلى البستان الذي يكن البستان مكان عمل فقط، بل امتداداً لمدرسته ، هناك، كان القاضي يعيد تعليمهم دون أن ينطق بكلمة : حين ينحني على شجرة مريضة ليعتني بها، كانوا يتعلمون الرحمة.

حين يقسّم الماء بالعدل بين الأشجار، كانوا يفهمون معنى الإنصاف ، حين يعطي ثمر الرمان لأول زائر يمرّ، كانوا يعرفون أن الكرم ليس واجباً... بل أسلوب في الحياة.

كان يقول لهم دائماً : إذا أردتم أن تفهموا الحسين « عليه السلام » ، أنظروا كيف يعيش الإنسان لا كيف يخطب...!

في المساء، يمشي الأبناء معه إلى القرية ولم يكن يتحدث كثيراً أثناء السير، لكن صمته كان مدرسة بحد ذاته.

كان يعلّمهم أن المشي ليس مجرد إنتقال من مكان لآخر، بل هو عبادة صغيرة ، تشبه خطوات الزائرين نحو كربلاء.

كانوا يرونه يسلم على كل إنسان يلتقيه ، يبتسم للعجوز الذي يتكئ على عصاه، يسمع شكوى الفلاح، يتفحص وجوه الأطفال كأنه يبحث فيهم عن شيءٍ ضاع وهكذا تعلّموا أن الحسين « عليه السلام » لا يسكن في المجالس فقط ، بل في الطريقة التي نعامل فيها الناس حين نمرّ بجانبهم دون أن نُحدِث ضجيجاً.

حين يغيب القمر ويهدأ البيت، يجلس القاضي مع أبناءه في ضوء السراج ، هناك، يبدأ بالأحداث التي لا تُقال إلاّ لقلوب تشبّ على الوعي : يحكي لهم عن الوفاء الذي أظهره أصحاب الحسين « عليهم السلام » ، وعن ليلة العاشر حين كانت الخيام مضاءة بقلوب مفعمة باليقين يحكي عن زينب « عليها السلام » وهي تقف وسط النار، أقوى من كل الهزائم ، يحكي لهم كيف يُبنى الإنسان على الحقيقة لا على الصراخ، وعلى المبدأ لا على الخوف

وعلى الرحمة لا على اللإنتقام وكانت تلك اللحظات هي الجوهر الحقيقي لما يريد أن يزرعه فيهم أن يكونوا أبناء الحياة لا أبناء الضجيج، أبناء القيم لا أبناء المظاهر ومع الأيام... يصبح ذكر الحسين « عليه السلام » عادة يومية.

كبر الأبناء، وتفرّقت طرقهم، لكنهم حملوا المدرسة معهم ، صاروا يمشون مثلما كان يمشي، يتحدثون كما كان يتحدث يبتسمون كما كان يبتسم، يساعدون الناس دون أن يُذكر إسمهم.

كل واحد منهم كان يشعر بأن الحسين « عليه السلام » يسكن أطراف روحه... لا لأنهم سمعوا القصص، بل لأنهم عاشوا معناها في البيت والبستان والطريق ورغم مرور السنين، بقي صوت القاضي يرافقهم : « إن أحببتم الحسين « عليه السلام » ...فكونوا نسخة صغيرة منه ».

لم يكن بيتهم من بيوت التاريخ ، ولا كان القاضي من أصحاب المناصب، لكنه كان أكبر من كل ذلك.

كان مدرسة تمشي على الأرض وكان أبناؤه شهوداً على أن التربية حين تُبنى على حبّ الحسين « عليه السلام » تخرج أجيالاً لا

تنحني للظلم، ولا تغلق أبوابها بوجه محتاج، ولا تفقد نورها مهما تعبت وهكذا بقيت قصته تُروى... ليس لأنها قصة رجل واحد بل لأنها قصة كل أب جعل من بيته بستاناً للحب، ومن حياته درساً لا يتوقف، ومن حب الحسين « عليه السلام » منهجاً لا يُنسى ، ولم يكن يريد منهم مجرد حفظ القصص، بل أن يجعلوها جزءاً من حياتهم اليومية، أن يعيشوا هذه القيم في أفعالهم، في قراراتهم، في تعامُلهم مع الآخرين.

الأم، إمرأة بسيطة الملامح، لكنها قوية الروح، كانت قلب العائلة النابض وكانت تعلم الأطفال أن الحب لا يكفي أن يُقال، بل يجب أن يُمارس ، وأن تقديم الطعام للفقراء، ومساعدة الجيران، ومواساة الحزين ونصيحة البعيد، كل ذلك جزء من الإنتماء الحقيقي للحسين « عليه السلام ».

كانت تقول لهم دائماً : « الحسين عليه السلام علمنا أن نعيش للآخرين، لا لأنفسنا فقط...وكل فعل صغير فيه الخير، أكبر من أي قول عظيم بلا عمل... ».

الحياة في الريف كانت بسيطة، لكنها مليئة بالدروس ، الطرق الترابية التي تمر بين البساتين، الأشجار التي تتمايل مع الرياح الطيور التي تزقزق مع شروق الشمس، كل ذلك كان مدرسة للطفل الصغير يعلمهم الصبر والكرم، والرحمة، والتواضع.

لم تكن الحياة في ذلك القرية مجرد أيام تُعدّ وتُنسى، بل كانت تربةً تنبتُ فيها الأرواح قبل أن تنبتَ فيها الأشجار ، وهناك، حيث تُولد الشمس على إستحياء من بين أطراف البساتين وحيث تتناثر ظلال النخيل على الأرض كأنها رسائل مكتوبة بيد الخالق تشكّلت ملامح عائلةٍ لم تبحث يوماً عن المجد في الكتب بل خلقته في تفاصيلها اليومية في قلب تلك العائلة ، كانت الأم إمرأة بوجه بسيط، لكنّ البساطة كانت قناعاً لا يُخفي معها هيبة الروح ولا عظمة القلب لم تكن تقرأ كثيراً، ولم تدرس في مدارس بعيدة لكنّها كانت تحمل من الفطرة ما يعجز عنه العلم كلّه ، وكانت تملك ذلك النور الذي يسبق التعليم، ويُعلّم نورٌ لا يتكلّم كثيراً، لكنه يفعل كثيراً ، نورٌ جعلها مركز الدار، وجعل حديثها أشبه بوصايا منقوشة على جدران الوجدان.

لم تكن تريد من أطفالها أن يحفظوا الروايات عن الإمام الحسين « عليه السلام » كما يحفظون الدروس، بل أن تُصبح تلك القصص عظاماً داخل عظامهم، ونَفَساً في صدورهم، وسلوكًا أمام أعين الخلق وكانت تقول لهم : « الحسين عليه السلام ليس حكاية تُروى... بل طريق يُسلك ».

كانت تُعلّم بأن القيم ليست كلمات، بل معارك صغيرة تخاض كل يوم ، كانت ترى أن الرجل الذي يقف مع الضعيف، والمرأة التي تهرع إلى مساعدة الأرملة ، والطفل الذي يقاسم خبزه صديقه هؤلاء أقرب للحسين « عليه السلام » من ألف خطيبٍ يعتلي المنابر ولا يفيض قلبه بما يقول لسانه ، وكانت تكرر على مسامعهم : « الخير إن لم يُصنَع... ماتت روحه والكلمة إن لم تُصدّقها الأفعال... فقدت وزنها ».

ولذلك، حين كانت تطهو الطعام، لم تكن تطهو للأسرة فقط كانت تطهو للفقراءِ الذين يأتون صامتين، وللمسافر الذي يطرق الباب بلا موعد وحين كانت تُرتّب البيت، كانت ترسل أحد الأطفال ليطمئن على جارٍ مريض أو إمرأة وحيدة وفي الليالي الباردة

حين يجتمع الجميع حول موقدٍ صغير، كانت تحكي لهم عن كربلاء لا بوصفها واقعة تاريخية، بل كإنسانٍ وقف في وجه الظلم وكمدرسةٍ تُخرّج الأحرار في كل زمان.

القرية في تلك المنطقة لم يكن مجرد مكان... كان مُعلّمًا والطرقات الترابية التي تبتلّ حين ينزل المطر، كانت تعطي درسًا في الصبر النخيل الشامخ الذي لا ينحني للريح، كان يعطي درسًا في الثبات البساتين الممتدة كانت تقول إن العطاء هو قانون الأرض، وإن الشجرة التي لا تُثمر تُقتلع وصوت الطيور عند الفجر كان يُذكّر بأن الحياة تُحبّ من يستيقظ لها، لا من ينتظرها أن تأتي إليه وهناك بين تلك الطبيعة التي تبدو بسيطة لمن يراها من بعيد، كان الأطفال يتعلّمون بصمت ما يعجز عنه كثير من الكبار.

كانوا يفهمون أن الرحمة ليست ضعفاً، وأن الكرم ليس ترفاً، وأن الشجاعة ليست صراخاً، بل قدرة على الوقوف في الوقت الذي يهرب فيه الآخرون.

كانوا يفهمون أن الانتماء للحسين « عليه السلام » ليس طقوساً تجري في موسمٍ واحد، بل منهج حياة ، لا ينقطع، ولا يذبل، ولا يُنسى.

لقد بنت الأم في أبنائها ما هو أعظم من البيوت، وأرسخت فيهم ما هو أبقى من الممتلكات. جعلتهم يدركون أن الإنسان الحقيقي هو الذي يترك أثراً طيباً، وإن كان فقيراً... وأن الغِنى الحقيقي ليس في المال، بل في القلب الذي يعرف كيف يعطي دون أن ينتظر المقابل وهكذا، حين كبر الأطفال، لم يحملوا معهم ذكريات فقط...بل حملوا ميراثاً...ميراث أمٍ فهمت الحسين «عليه السلام» على أنه مشروع للإنسانية، لا مجرد صفحة من التاريخ.

ميراث قريةٍ علّمهم أن الحياة تُدار بالضمير قبل أن تُدار بالقوانين وبالسخاء قبل أن تُدار بالحساب، وبالنية الطيبة قبل أن تُدار بالمظاهر ولذلك، بقيت كلمات الأم راسخة في عقولهم : « إفعلوا الخير... فالله لا يزن الأقوال، بل يزن القلوب ».

وهكذا، في ذلك الركن البعيد من الريف، لم تكن العائلة مجرد عائلة كانت مدرسة وكانت قيمة وكانت سيرة من نور تُكتب بأفعال لا

تبهت، وبقلوب لا تتعب، وبإنتماءٍ لا يخفت صوته مهما تغيّرت الأزمنة فكل حبة تراب، وكل شعاع شمس، وكل قطرة مطر كانت تحمل درساً للحياة.

كانت العائلة تُظهر حبها للحسين « عليه السلام » في كل تصرف من طريقة مشيهم بين الناس، كانت تُقرأ عليهم معاني المسؤولية والوعي من طريقة حديثهم يظهر الإحترام، ومن طريقة تقديمهم للضيافة يظهر الإخلاص للخير ، وكل حركة، كل إبتسامة، كل كلمة، كانت رسالة صامتة : أن الإنتماء للحسين « عليه السلام » هو حياة كاملة تُعاش بكل لحظاتها.

الأبناء، كل واحد منهم، كان يتعلم هذا الإنتماء من التفاصيل اليومية ، الصغير منهم علي ، الذي لم يتجاوز الخامسة من العمر كان يجمع الطيور الصغيرة التي فقدت عائلتها، يحرص على إطعامها ويشارك الأكبر سنًا في الأعمال الصالحة، ليس إجباراً، بل لأن هذا الطريق أصبح جزءاً من كيانه.

الأخ الأكبر كان يقف مع المحتاج، يشارك في الحصاد مع الفلاحين ويحرص على أن ينقل لأصغر الأطفال درس العطاء ، وتعلموا من

والدهم أن الشجاعة ليست في الحروب فقط بل في قول الحق حين يخاف الجميع، ومواجهة الظلم بحكمة وصبر الحق والعدل كانا محور حياتهم ، ولم تكن عائلة القاضي مجرّد بيتٍ يسكن أطراف الريف كانت أشبه بمدرسة أخلاقية تُنبت القيم كما تنبت الأرض سنابلها.

كل حجرٍ في فناء الدار، كل شجرة نخيل تهتزّ على وقع الريح، كل نافذة تُفتح على الصباح... كانت تحمل في طياتها ذكرى، وعبرة وإيحاءً بأن الحياة تصبح أوسع حين تُضاء بنور الحسين « عليه السلام » في تلك الأرض الرحبة، حيث تتناثر بيوت الطين كأنها أجنحةٌ متواضعة تحتمي ببعضها من قسوة الزمن، كانت الأسرة تنحت معنى الانتماء الحقيقي ، ولم يكن حبّ الحسين « عليه السلام » شعاراً يُرفع، ولا لفظًا يُعلَّق على الجدران، بل كان سرًّا يتسلل في تفاصيلهم اليومية حتى غدا بوصلةً داخلية تحكم خطواتهم، وتنظّم نظراتهم، وتُهذّب أصواتهم.

كل حبة تراب كانت تمنحهم درساً في التواضع. كل شعاع شمس يلامس وجوههم يذكّرهم بأن الطريق إلى الله لا يُضاء إلاّ بنور الحق.

وكل قطرة مطر تهبط على السطوح الطينية كانت تُشعرهم بأن الرحمة حين تنزل لا تميّز بين غني وفقير، ولا بين قوي وضعيف ، هكذا تربّت العائلة وهكذا صارت الحياة لديهم فعل عبادة.

الأب... الحكمة التي تتكئ عليها الأرواح وكان والدهم ، بملامحه المليئة بتجارب لا تُحصى، يشبه كتاباً مفتوحاً يقرأه كل من جلس إلى جانبه ولم يكن يرفع صوته كي يُسمع، بل كان الصمت من حوله يصغي إليه قبل الكلام.

تعلّم من مدرسة الطف أن الحق ليس صراخاً، وأن العدل ليس سيفاً، وأن الشجاعة لا تولد في ساحات الحرب فقط ، بل تتجلى في الصبر، وفي رفض الباطل حين يتزاحم الناس على تأييده، وفي رفع صوت الحق حين يخشاه الجميع.

كان يُربّي أبناءه على أن الرجولة تبدأ من القدرة على إصلاح الذات قبل إصلاح الآخرين وعلى أن الإنتماء للحسين « عليه السلام » ليس لحظة عاطفية، بل موقف مستمر يتجدد كلما تعرض الإنسان لإمتحان أخلاقي أو مواجهة صعبة الأم... الجذر الذي لا يراه أحد لكنه يحمل الشجرة كلها

كانت الأم تمتلك تلك القدرة العجيبة على تحويل اليوم العادي إلى لحظة نور ، صوتها في الصباح يشبه حفيف ورقٍ ينهض من نومه خطواتها في البيت ليست مجرد حركة، بل نَفَسٌ يمدّ المكان بالهدوء كانت تؤمن أنّ التربية ليست أوامر، بل إشعال جذوة في القلب تجعل الطفل يتجه نحو الخير من تلقاء نفسه.

كانت تقول لأبنائها : « كونوا إمتداداً للحسين عليه السلام في أفعالكم قبل أن تكونوا باسم ».

علي الصغير... قلبٌ يتسع لأجنحة الطيور ، أصغر الأبناء، علي كان يملك روحاً لا تعرف القسوة.

طفلٌ لم يبلغ العاشرة، لكنه يحمل من الرحمة ما يفوق أعمار الرجال كان يرى الطيور اليتيمة فيسارع إلى جمعها كمن يجمع أمانات السماء يطعمها، يدفئها، ويعيد إليها شيئاً من الطمأنينة التي فقدتها.

كان يعرف الجيران بأسماءهم ، ويسأل عن مرضاهم، ويفتح باب بيته لكل محتاج دون أن ينتظر توجيهًا.

لم يكن يفعل ذلك إعجاباً من أحد، ولا بدافع أمرٍ، بل لأن الخير صار جزءًا من تكوينه ، كما لو أن قلبه صُنع من رقةٍ مأخوذة من نساء كربلاء.

والناس كانوا يجدون في القاضي سنداً كلما ضاق الطريق كان يقف مع الفلاحين في موسم الحصاد يشاركهم العرق والتراب يرفع السلال، ويخفف عنهم متاعب الأرض وعلى الرغم من الجهد كان يظهر على وجهه نورٌ غريب كأنه يتغذى من فكرة العطاء نفسها.

كان يدرك أن الإنسان لا يُقاس بما يملك، بل بما يمنح وأن القرب من الناس هو الطريق الأقرب إلى رضا الله لذلك كان يحرص دائماً على أن يعلّم الأطفال الصغار أن الخير عادة، وأن المساعدة شرف وأن العطاء لغة لا يتقنها إلاّ أصحاب القلوب الكبيرة وهو صوت الحق الذي لا ينكسر ، فكان صورة صادقة لمعنى المروءة.

تعلم القاضي كل ذلك من والده الشيخ عبدالحميد أن قول الحقيقة يحتاج إلى قلب ثابت، وأن مواجهة الظلم لا تتطلب جسداً ضخماً بقدر ما تحتاج روحاً مؤمنة بأن العدل قيمة لا تموت.

كان إذا رأى خطأً، أشار إليه بلا خوف وإذا رأى مظلوماً، وقف بجانبه حتى لو بقي وحده وكان يُدرك أن الطريق نحو العدالة ليس مفروشًا بالورود، بل محفوف بالمخاطر، لكن من سار عليه محمولًا على قيم الحسين « عليه السلام » لا يخشى شيئاً...كل ما كانوا يفعلونه لم يكن مجرد عادات، كان ميثاقاً غير مكتوب تربّت عليه الأسرة : أن تكون صادقاً ولو انكسر العالم حولك وتفتح يدك قبل أن تُفتح في وجهك ويرى الناس فيك إنعكاساً لشيء يطمئنهم، لا يرهقهم وتُقاوم الشر دون أن تجعله يسكن في داخلك وتكون كبيراً في كل موقف، حتى لو كنت أصغر القوم.

هكذا عاشوا... وهكذا صاروا مدرسة لا تنطفئ ولم تكن حياتهم مثالية من دون تحديات، بل كانت مليئة بما يُثقل الكاهل لكنهم عرفوا كيف يحوّلون الألم إلى درس، والتعب إلى نضج والمصاعب إلى فرص للتماسك وحين تُذكر هذه العائلة، لا تُذكر بوصفها أسرة عادية، بل بوصفها قيمة متحركة، ونموذجاً لما يمكن أن تصنعه الفطرة السليمة حين تُضيء بنور الحسين « عليه السلام ».

لقد كان الإنتماء لديهم طريقًا، وليس شعاراً حياة تُعاش، ومعنى يُترجم، وبياناً أخلاقياً خالداً : أن الحسين « عليه السلام » لا يُنادى بإسمه فقط... بل يُنادى بالفعل الذي يشبهه.

كانوا يعلمون أن المال والممتلكات ليست غاية، وأن الغنى الحقيقي هو غنى الروح وفي موسم الحصاد، كانوا يخرجون مع الجيران للمساعدة، يزرعون يحصدون يملؤون أكياس الطعام للفقراء، ويتركون أثراً في قلوب من حولهم ولم يكن لديهم شهرة ، لكن أثرهم كان كبيراً في المجتمع من حولهم.

في المساء، بعد العمل، يجتمعون حول النار الصغيرة في الباحة يتبادلون القصص والحكايات، ويتركون الأطفال يتأملون فيها يحسون بها، ويتعلمون كيف يصبح الحب جزءاً من كل لحظة في حياتهم.

كانوا يسمعون عن كربلاء، عن صبر الحسين « عليه السلام » عن كرمه وعدله ويجدون إنعكاس هذه القيم في حياتهم اليومية، في أبسط تفاصيلها : في مساعدة جار في نصح صديق في مشاركة

خبزهم مع الغريب حتى في لحظات الفرح والحزن، كان الإنتماء للحسين « عليه السلام » يظهر بوضوح.

في الأفراح يفرحون للآخرين قبل أنفسهم، وفي الأحزان يواسون قبل أن يطلب منهم أحد المساعدة.

كل فعل صغير، كل إبتسامة، كل كلمة طيبة كانت تعبيراً عن الحب الذي يعيشونه ولم تكن الأرض هناك واسعة، ولا الحقول ممتدة إلى ما لا نهاية، لكنّ القلوب كانت أكبر من حدود المكان.

كانت القرية تشبه كفّ إنسان سعى طوال حياته ليُمسك بالخير لا بالثراء؛ بالعطاء، لا بالزينة و كل شيء فيها يلمع من الداخل كما لو أن الله أختار أن يضع فيها قبسًا من رحمته، يوزعه على من يمرّ بها مرور عابر أو مقيم.

كان الناس يعيشون ببساطة لا تُشبه الفقر، بل تُشبه الإكتفاء يستيقظون قبل الشمس، لا لأن العمل ينتظرهم، بل لأن قلوبهم أمتلأت بامتنان لا يسمح لهم بإضاعة لحظة من نهارهم.

ولم يكن بينهم من يسأل: ماذا نملك...؟

بل كانوا يتساءلون: ماذا يمكن أن نترك في روح غيرنا اليوم...؟

كانت الأفعال الصغيرة عندهم أكبر من خطب كثيرة يحمل الرجل اناء الماء لجار عجوز فلا يلتفت ليرى من يراقبه وتخبز المرأة الرغيف وهي تخبئ فيه نية طيبة قبل أن تضعه في يد يتيمة، ويُمسك طفل بيد طفل أصغر منه كي لا يتعثّر في الطريق...هكذا، بلا صخب بلا إعتراف، بلا إنتظار لشكراً من أحد... كانت الأخلاق تُمارس في صمت مهيب.

لم يكن الإنتماء للحسين « عليه السلام » عندهم شعاراً موسمياً ولا قضية تُرفع بوصفها شرفًا اجتماعياً...كان سلوكًا يومياً...يبدأ من طريقة الوقوف في الطوابير، ويصل إلى الحد الذي يجعلهم يُقدّمون غيرهم على أنفسهم...ولو كانت الحياة تضيق عليهم من كل الجهات.

لقد تعلموا من كربلاء أن الظلم ليس سيفاً يُشهر ضد الرجال فقط بل نظرة قاسية قد تُطفئ قلباً أو كلمة جارحة قد تسقط روحاً...أو موقف جبان يُبقي الباب مفتوحاً للطغيان وتعلموا من الحسين « عليه السلام » أن الكرامة ليست صخرة صمّاء بل طينٌ رطب تُشكّله يد الإنسان كل يوم بحسب ما يفعل ، من يحسن، يرفع رأس

الكرامة، ومن يؤذي، يهوي بها، ومن يقف مع الحق، يُعيد للأرض توازنها كلّما أختلّت.

في ليالي الشتاء الطويلة، حين كانت الرياح تضرب الأبواب الخشبية بقسوة، كانت النوافذ تُفتح على صوت رجل يحدث أبناءه عن معنى الثبات...وعن أولئك الذين رحلوا من أجل أن تبقى للإنسانية قدسية.

لم يكن يسرد كما يروي أهل التاريخ، بل كما يفتح إنسان صدره ليُري الآخرين جرحاً ما زال ساخناً.

كان الأطفال يُصغون وهم يشعرون أنهم يشربون من نبع بعيد لا يشبه ماء القرى بل ماءً خُلِق ليُغسل به القلب وعندما تُروى قصص كربلاء لا أحد يتخيّلها بعيدة... بل يشعرون بها تتحرك في أيديهم في خطواتهم... في نظراتهم إلى الضعيف والمستغيث وكانوا يعلمون أن الحسين « عليه السلام » لم يترك معركة فقط بل ترك مِعياراً يقيسون به إنسانيتهم كل يوم : هل أخفّف عن غيري...؟

هل أواسي قبل أن يُطلب مني...؟

هل أضع الظلم حيث يستحق...في قعر الرفض...؟

ومع كل ذلك، لم يكن الناس هناك يسعون إلى السمعة أو مكانة إجتماعية، لكنهم تركوا أثراً يصعب أن يُنسى.

أثرٌ لا يُدوَّن في الكتب، بل يُكتب في الرائحة التي يبقيها شخص كريم في المكان الذي يجلس فيه، وفي الراحة التي تمنحها كلمة طيبة وقت انكسار وفي الصمت الذي يُشبه حضناً حين يعجز الكلام.

كانت قلوبهم مرهفة كمن يمشي على الماء ومع ذلك ثابتة كمن يمشي على صخر...هذه المفارقة هي التي جعلتهم صيادي ضوء يجمعون من العالم أضعف لحظاته ويحوّلونها شيئًا دافئاً حتى في لحظات الفرح، لم يكونوا يرقصون لأنفسهم وحدهم بل يفرحون لأن الحياة منحت غيرهم شيئاً جميلاً وفي لحظات الحزن، كانوا يُسابقون الزمن ليكونوا أول الواصلين وأول الواقفين عند باب من إنكسر قلبه وأول من يضع على كتفه يدًا تُشعره أنه ليس وحده.

وهكذا، دون أن يدركوا، صاروا صوت الضمير في مجتمع يضجّ بالضجيج وصاروا تلك الفئة التي تضيء الأماكن بوجودها وتُعدّل ميزان الأخلاق بصمت وتجعل من الإنتماء للحسين « عليه السلام » ليس فكرة... بل حياة تُعاش بكل تفاصيلها.

هؤلاء الناس الذين لم يبحثوا عن المجد، تركوا وراءهم ما لا تتركه الجيوش : تركوا طريقًا من نور يمشي فيه كل من عرفهم ويظل يذكرهم كلما تذكّر معنى الخير مع مرور السنوات، أصبح الإنتماء للحسين « عليه السلام » واضحًا لكل من حولهم الجيران الأطفال، حتى المارة النادرون الذين يزورون القرية، يعرفون أن هذه العائلة تعيش حب أهل البيت عليهم السلام في كل فعل وأن كل حركة صغيرة تحمل معنى وأثراً... الفرق كبير بين من يقول : « أحب الحسين عليه السلام » وبين من يجعل حياته كلها شهادة على قيمه وتعاليمه.

الحياة في هذه القرية – على بساطتها – كانت مدرسة لا تنتهي للأطفال وكانوا يتعلمون الحب، العطاء، الصبر، الكرم، الرحمة والمثابرة في كل يوم والطبيعة حولهم كانت جزءاً من دروسهم : النهر كان يعلمهم الكرم الأشجار الصامدة تعلمهم الصبر، التراب البسيط يعلمهم التواضع والشمس تعلمهم الإستمرار في منح النور دون انتظار مقابل ولم تكن تلك القرية سوى نقطة صغيرة فوق خارطة واسعة لا يلتفت إليها أحد.

طرقها ترابية، وليلها أهدأ من الهمس، وبيوتها متقاربة كأنها تتعاضد كي لا يسقط أحدها وحيداً ، لكنّ شيئاً ما كان يجعلها مختلفة شيئًا لا يُقرأ في خرائط الأرض، بل في الخرائط التي تُرسم داخل الأرواح.

في أطراف القرية، حيث ينحني الطريق كأنه يسجد للجهة التي تأتي منها الريح ، الأبناء يشاهدون كيف يُفتح هذا البيت قبل أن تستيقظ الشمس، وكيف لا يُغلق حتى يتعب القمر من السهر...؟

لم تكن تلك الأسرة تملك الكثير، لكنها تملك شيئاً أهم من المال: يقينًا بأن خدمة الآخرين عبادة لا تُكتب في الدفاتر بل في القلوب وكانوا يعيشون حبّ الحسين « عليه السلام » لا كجملة تُقال، بل كمنهج حياة ، فإذا جاء ضيف، رحّبوا به وكأنه قادم من كربلاء نفسها وإذا مرّ عابر سبيل، شرب من ماء البيت قبل أن يسأل وإذا طلب أحدهم شيئاً، أعطوه حتى لو أقتطعوا من حاجتهم ولأن الحياة لا تخطئ في قراءة الأرواح، فقد صار الجميع يعرف : هذا البيت لا يُطرق... بل يُلتجأ إليه وفي تلك القرية، كانت الطبيعة نفسها تشارك في تربية الأطفال.

النهر الذي يمر قرب الدار، بصوته المتواصل، كان يُلقي درساً يومياً في الكرم : « الماء يمضي، ولو حبسه لن يتعفن فقط... بل سيفقد معنى وجوده ».

الأشجار التي تقف على أطراف الحقول، رغم الرياح والبرد، علّمتهم الصبر والثبات ، التراب البسيط الذي يسير فوقه الجميع، جعلهم يفهمون أن العظمة لا تنمو إلاّ في أرض متواضعة حتى الشمس... تلك المخلوقة التي تمنح نورها دون شرط، كانت تُرسل درسًا آخر: « الخير الحقيقي لا ينتظر الشكر ».

وفي إحدى السنوات، حدث أمرٌ لم تنسه القرية كلها ، جاء رجل غريب، بملابس مغبرة وصوت متعب ، وكان يبدو كمن عبر الصحارى كلها قبل أن يصل ، طرق الباب ثم تراجع خطوة وهو يخاف أن يُردّ ، لكن الباب فُتح كعادته دون أي سؤال ، دخل الرجل، أكل، شرب، وغسل تراب السفر عن وجهه ، لكنه في الليل، قبل أن ينام، بكى ، سأله كبير العائلة : ما يبكيك...؟

قال الرجل بصوت مكسور : « ثلاثة أيام وأنا جائع لا أجد ما أأكل ، ولم يفتح لي أحد، وعندما وصلت إلى بيتكم... شعرتُ أني وصلتُ إلى بيتٍ أعرفه منذ زمن...».

لم يعرف أن تلك الجملة ستغيّر كل شيء ، فهذا الرجل بعد شهور عاد إلى قريته، ولم ينس ما حدث ، وبدأ يحكي قصته في كل مجلس ثم جاء غيره... وآخر... ومن بعده آخر وهكذا، صار الطريق إلى بيت القاضي كطريقٍ إلى عين ماء : كل من يمرّ به لابد أن يشرب لكن القصص الجميلة لا تبقى جميلة من غير إمتحان.

وفي إحدى الليالي، بينما السماء ملبّدة بالغيوم وكأنها تُخفي شيئاً شبّ حريقٌ كبير في القرية ، الناس يركضون، الأطفال يبكون اللهيب يلتهم البساتين وكان الجميع يبحث عمّن ينقذهم...وعندما صرخ أحدهم : النار وصلت بستان فلان...!

جرى الجميع نحوه...قضوا ساعات ينقذون البساتين واحد تلو الأخرى وعندما أُطفئت النار، جلسوا على الأرض متعبين، وثيابهم سوداء من الدخان وكانت مفاجأة السماء هناك : كل البساتين

أحترقت أطرافها... إلاّ بستانهم نار الحريق أقتربت منه ثم أنحرفت كأن يداً غير مرئية دفعتها بعيداً.

قال أحد كبار السن وهو ينظر بدهشة : هذا البستان... تُدافع عنه السماء، لأنه يدافع عن الناس...

كبر الأبناء، وتعلموا ما لم يُكتب في الكتب : أن الحسين « عليه السلام » ليس قصة تُقرأ، بل روحٌ تُعاش وأن خدمة الناس ليست فضلًا منهم، بل فضلاً من الله عليهم وأن البيوت التي تُفتح للناس... لا تُغلق أبوابها في السماء وبقيت القرية، إلى يومنا هذا تحكي للأطفال قصة ذلك البيت الذي لم يكن كبيراً، لكنه كان واسعاً بالرحمة ذلك البيت الذي قال عنه رجل غريب : يشبه الحسين « عليه السلام » وفي كل مناسبة دينية، كان الإنتماء للحسين « عليه السلام » يظهر بشكل واضح في زيارة القرى المجاورة ، كانوا يحرصون على تقديم المساعدة للجميع، يعلمون الأطفال الصغار كيف يكونون جزءاً من هذه الرسالة...؟

لم يكن لديهم الكثير من المال، لكن لديهم قلباً كبيراً أو إيماناً بأن الحب الحقيقي للحسين « عليه السلام » لا يحتاج للمال، بل يحتاج للقلب المفتوح للفعل الصادق، والنية الخالصة.

هؤلاء الناس لا يقولون فقط نحب الحسين « عليه السلام »... هؤلاء ينتمون للحسين « عليه السلام » ، في دمائهم وأنفاسهم، في طريقة مشيهم، في طريقة توزيعهم للخبز على الضيوف، وفي كل تفصيل صغير من حياتهم اليومية وهذا الإنتماء وهذا الحب الذي يُعاش هو الذي يجعل من البسطاء أبطالاً، ومن العائلة الصغيرة مدرسة للعالم كله، ومن الريف مكاناً يعيش فيه الحق والجمال والخير.

في الأماكن التي تمرّ عليها الشمس ببطء، وفي القرى التي لا تصلها الأخبار إلاّ بعد أن تشيب في المدن، يعيش الناس بطريقة مختلفة هناك، تنمو الأرواح قبل أن تكبر الأجساد، وتُصنع الرجولة على موائد بسيطة يتصدّرها الخبز الحار والدعاء.

في تلك القرى، لا يُعلَّم الإنتماء للحسين « عليه السلام » بالكلمات، بل يتسرّب إلى القلب كما تتسرّب رائحة التنور إلى

جدران البيوت بلا جهد بلا تصنّع، بلا حديث مُنمّق. ينشأ الطفل وهو يرى أباه يفتح الباب لأي غريب قبل أن يسأله : من أين أتيت...؟.

ويرى أمّه تحمل طعامها إلى الزائر حتى لو لم يتبقَّ لها ولأطفالها إلاّ ما يسدّ الرمق وبهذه التفاصيل الصغيرة ، تُكتب سيرةٌ لا يكتبها التاريخ الرسمي لكنها تعيش في جلود الناس وضميرهم وكل مناسبة دينية في تلك القرى تبدو كأنها إستدعاءٌ لروح كربلاء ليس إحتفالاً بل إستحضارٌ لمعنى ظلّ أكبر من الزمان كله وترى الرجال يتحركون بوقار، وكأنهم يمشون في ظلّ راية لا تُرى.

ترى النساء يُعددن الطعام وكأن كل وجبة صدقةٌ تصعد إلى السماء وترى الأطفال يُشاركون في الخدمة، يملأون الأوعية بالماء، ويرتبون النعال ويتعلّمون من أعين الكبار قبل ألسنتهم أن خدمة زائر الحسين « عليه السلام » ليست واجباً... بل شرفاً .

لم يكن لدى هؤلاء الناس ثروات، لكنهم يملكون ما لا يُباع : روحاً تكفي لتُعيد إلى العالم توازنه كلما أختلّ.

لم يتعلّموا الفلسفة، لكنهم يعرفون أنّ طريق الحسين « عليه السلام » ليس طريق الرفاه ، بل طريق الإنسان إلى إنسانيته لذلك، حين يخرجون لزيارة القرى المجاورة، يخرجون كما يخرج الضوء من نافذة صغيرة بسيطاً لكنه يُنير يسيرون على الطرق الترابية دون أن يشعروا بالمشقّة، لأن التعب يتلاشى حين يتحول الهدف إلى قيمة يحملون جرار الماء على أكتافهم، يوزّعون الخبز الساخن على العابرين يربتون على كتف الغريب، ويبتسمون للمسافر الذي لا يعرفهم ولا يعرفونه هذه تفاصيل تبدو عابرة، لكنها في الحقيقة أعمدة حضارةٍ تُبنى في الظلّ بعيداً عن ضجيج المدن.

هؤلاء الناس لا يحتاجون إلى أن يصرخوا : نحن نحب الحسين « عليه السلام » فالصراخ يحتاجه من يريد أن يُقنع الآخرين، لا من يعيش الحقيقة يكفي أن تراهم وهم ينهضون فجراً ليعدّوا أواني الشاي للزائرين ويكفي أن تراهم يتسابقون على خدمة موكب صغير كأنه موكب العالم كله ويكفي أن تراهم يوزّعون رغيفاً واحداً على ثلاثة، ثم يبتسمون ويقولون : البركة تمشي مع إسم الحسين « عليه السلام »...إنه حبّ لا ينادي، بل يعمل حبّ لا يتباهى، بل يغيّر

حبّ لا يكتب على الجدران... بل يُنقش في القلوب ومع كل هذه البساطة، يخرج من هذه القرية أبطال حقيقيون ليسوا من أولئك الذين تصنعهم الكاميرات، بل من الذين يصنعهم الإخلاص، رجال ونساء يعرفون أن البطولة لا تحتاج إلى سيوف بل إلى قلب يعرف لماذا خُلِق...؟

وأطفال يكبرون وهم يحملون إرثاً أكبر منهم، لكنهم يحملونه بخفة الطيور لأنها رسالة لا تُتعب من يحملها وهكذا أصبحت قريةُ فرج لا تُعرَفُ بمساحتها على الخريطة بل بما تحمله في صدور أهلها من سعةٍ لا تُقاس، ولا تُحدّ ، بترابها الذي يلتصق بالقدمين كأنه يرفض الرحيل، وببُساطتها التي لا تعرف التكلّف، وبوجوه أهلها التي تشبه الأرض حين ترتاح بعد المطر... صادقة، هادئة، ومليئة بحكاياتٍ لا تُقال، بل تُحَسّ.

هناك، لا يُقاس الإنسان بما يملك، بل بما يُخفي في قلبه من نور، ولا يُعرَف الغنيّ بكثرة ماله، بل بقدر ما يعطي دون أن ينتظر، ولا يُمدَح العاقلُ بكثرة كلامه، بل بصمته حين يكون الصمتُ أبلغ من ألف حديث وفي القرية فرج الحياة لا تُدرَّس في كتب، بل تُعاش في

تفاصيل الأيام، في نظرة أمٍّ لابنها، في تعب أبٍ يعود آخر النهار في يدٍ تُمدّ دون سؤال، وفي بابٍ يبقى مفتوحًا... حتى للغريب.

لم يكن أهلها فلاسفة، ولا خطباء، ولا كتّابًا تُنشر أسماؤهم في الصحف... لكنهم كانوا يعرفون ما يجهله كثيرون؛ يعرفون أن الحقّ ليس فكرة تُناقش، بل طريقٌ يُمشى، وأن الكرامة ليست شعارًا، بل موقف، وأن الإنسان يُختبر في لحظاتٍ لا يراه فيها أحد... إلاّ نفسه وربّه وكان حبّ الحسين فيهم... ليس قصة تُروى في موسم ولا دمعةً تُذرف ثم تُنسى، بل كان شيئًا أعمق، يسري فيهم كما يسري الدم في العروق ،كانوا لا يقولون عنه كثيرًا، لكنك تراه في تصرفاتهم، في صبرهم، في صمتهم حين يجب الصمت، وفي وقوفهم حين يجب الوقوف ، كانوا يفهمون، دون أن يشرح لهم أحد، أن حبّه ليس حزنًا فقط، بل مسؤولية... وأن السير على خطاه ليس كلماتٍ تُقال، بل حياةٌ تُعاش.

وكان الطفل ينشأ وهو يرى هذه المعاني قبل أن يسمعها، فيتعلّمها دون أن يدري ، يكبر وهو يحمل في داخله شيئًا لا يراه، لكنه يشعر به... شيئًا يجعله يختار الصواب حتى لو كان الطريق أصعب، ويمنعه

من الظلم حتى لو لم يره أحد ، وهكذا، يصبح حبّ الحسين « عليه السلام » فيه ليس ذكرى، بل بوصلة... تُرشده كلما ضاع، وتُعيده إلى نفسه كلما ابتعد وكانت القرية، رغم صغرها، تبدو وكأنها عالمٌ كامل، عالمٌ لا يحتاج إلى ضجيج المدن ليكون حيًّا، ولا إلى أضواءٍ كثيرة ليكون واضحًا ، يكفي أن تمشي في طرقاتها لتفهم... أن البساطة ليست نقصًا، بل نقاء، وأن القلوب التي لم تتلوّث بعد... ترى ما لا يراه الآخرون وكان الناس الذين يظنّهم العالم بسطاء... هم في الحقيقة الأعمق فهمًا ، لأنهم لم يضيعوا أنفسهم في التعقيد ولم يبتعدوا عن فطرتهم ولم يبدّلوا ما في داخلهم بما في الخارج كانوا يعرفون أن الحياة تمضي وأن كل شيء زائل... إلاّ الأثر الذي يتركه الإنسان في قلوب الآخرين وفي المساءات الطويلة، حين تهدأ الأصوات وتعود القرية إلى سكونها، كان لكل بيتٍ حكاية، ولكل قلبٍ دعاء، ولكل روحٍ حديثٌ صامت مع شيءٍ أكبر منها هناك، لا يحتاج الإنسان إلى كثير من الكلمات ليشعر أنه مفهوم... لأن القلوب كانت تتشابه، والألم كان مشتركًا، والفرح كان يُقسَم على الجميع وهكذا، دون ضجيج، ودون إعلان، كانت

قرية فرج تصنع إنسانها... إنسانًا يعرف أن القيمة ليست فيما يظهر، بل فيما يبقى، وأن القوة ليست في الصوت العالي، بل في الثبات، وأن الحبّ الحقيقي... لا يُقال دائمًا، بل يُرى في المواقف وفي النهاية... لا يبقى من كل هذا إلاّ أثرٌ خفيف، لكنه عميق يبقى هؤلاء الناس، بقلوبهم البيضاء، الصفحة المضيئة في كتابٍ لا يُكتب بالحبر، بل بالمواقف، ولا يُقرأ بالعين، بل بالإحساس كتابٌ لا يكتبه إلاّ الصادقون، ولا يفهمه إلاّ من عاشه.

كتابٌ عنوانه: نحن لا نقول أحببنا الحسين « عليه السلام » نحن نعيش في ظلّه ، نعيشه حين نصبر، حين نغفر، حين نقف مع الحقّ ولو كلفنا ذلك الكثير، حين نختار أن نكون إنسانًا... في عالمٍ ينسى أحيانًا معنى الإنسان وهكذا... تبقى قرية فرج ليست مجرد قرية، بل فكرة... روح... وطريق، من فهمها... فهم شيئًا من جوهر الحياة، ومن عاشها... أدرك أن أعظم الأشياء، هي تلك التي لا تُقال.

صار البيت، بفستق وعلي، أكثر من جدرانٍ تُظلِّل الجسد، وأكثر من بابٍ يُفتح ويُغلق مع تعاقب الأيام... صار حكاية تُروى دون

صوت، ودفئًا يُشعّ دون نار، وطمأنينةً لا تحتاج إلى تفسير ، لم يكن بيتًا كبيرًا، ولا لافتًا للنظر، لكنه كان ممتلئًا بشيءٍ لا يُرى... شيءٍ يشبه النور حين يسكن القلب، ويشبه السلام حين يجد له مكانًا أخيرًا بعد طول تعب.

كان فستق، بحضوره البسيط، جزءًا من هذا السر ، لم يكن مجرد كائن صغير يعيش في زاوية الدار، بل كان روحًا تُكمل نقصًا لا يُقال، وصديقًا يُفهم دون لغة ، في خطواته الخفيفة، في نظرته الصافية، في نباحه الذي لا يخلو من حنان، كانت هناك رسالة خفية : أن الحب لا يحتاج إلى كلماتٍ كبيرة، بل إلى قلبٍ يعرف كيف يمنح دون انتظار ، أما علي، فقد كان يحمل في داخله شيئًا تغيّر مع الأيام ، لم يعد كما كان قبل أن يصبح هذا البيت ملاذًا وقبل أن يصبح فستق جزءًا من تفاصيله اليومية ، تعلّم، دون أن يدري، أن الصبر ليس انتظارًا فارغًا، بل بناءٌ هادئ، لبنةً فوق لبنة، شعورًا فوق شعور حتى يكتمل شيءٌ لا يُهدم بسهولة. صار يرى الحياة بعينٍ أخرى... عينٍ لا تبحث عن الضجيج، بل عن المعنى لا تركض خلف كل شيء، بل تختار ما يستحق أن يبقى وفي هذا

البيت، لم تكن الأيام تتشابه، رغم هدوئها ، كل صباح كان يحمل بداية جديدة، حتى لو بدا شبيهًا بما قبله ، ضوء الشمس الذي يتسلل من النوافذ كان يبدو مختلفًا كل مرة، وكأنّه يعرف أن في الداخل قلوبًا تستحق النور ، رائحة الشاي، صوت الخطوات حركة الهواء بين الستائر... كلها تفاصيل صغيرة، لكنها كانت تصنع عالمًا كاملًا من الألفة وكان الزائرون، حين يدخلون، يشعرون بشيءٍ لا يستطيعون وصفه ، يتوقفون لحظة، ينظرون حولهم، ثم يبتسمون دون سبب واضح ، كأن المكان يهمس لهم بشيءٍ يعرفونه في أعماقهم لكنهم نسوه. ربما هو الشعور بالأمان... أو ذلك الحنين الغامض إلى بساطةٍ افتقدوها في زحام الحياة ، كانوا يخرجون وهم أخفّ وكأنهم تركوا جزءًا من ثقلهم خلفهم، أو ربما أخذوا معهم شيئًا من هذا السلام وفي لحظات المساء، حين يهدأ كل شيء ويغفو الضوء على حواف الجدران، كان البيت يدخل في صمته العميق ، صمتٌ ليس فراغًا بل امتلاء... امتلاء بكل ما حدث خلال اليوم، بكل الضحكات، بكل النظرات، بكل اللحظات التي مرت دون أن تُلاحظ لكنها تركت أثرًا ، كان علي يجلس أحيانًا

ينظر إلى فستق فيفهم أن بعض العلاقات لا تُفسَّر، بل تُعاش فقط

ومع مرور الوقت، لم تعد القصة مجرد قصة بيتٍ وكلبٍ ورجل... بل أصبحت درسًا خفيًا عن الحياة ، عن أن الرحمة قد تبدأ من شيءٍ صغير جدًا من نظرة، من لمسة، من كائن لا يملك سوى قلبه... لكنها تكبر وتكبر، حتى تصبح قوةً تحمي كل ما حولها قوة لا تُرى، لكنها تُحسّ، وتُغيّر، وتبقى.

كان هذا البيت يُعلّم كل من يقترب منه أن الوفاء ليس وعدًا يُقال بل فعلٌ يُكرر كل يوم، وأن الحب الحقيقي لا يصرخ ليُثبت نفسه بل يهدأ... ويستمر. وأن الحياة، مهما كانت قاسية في الخارج تستطيع أن تكون جميلة، إن وُجد مكانٌ صغير يُحسن احتضانها وهكذا، استمرت القصة... لا كبدايةٍ ونهاية، بل كجريانٍ دائم كنبضٍ لا يتوقف ، كل يوم يُضيف سطرًا جديدًا، كل لحظة تُعمّق المعنى، دون أن تُكتب الكلمات، ودون أن يُعلن شيء ، لكنها كانت هناك... واضحة، صادقة، حقيقية وفي النهاية، لم يكن السر في البيت، ولا في فستق، ولا حتى في علي وحده... بل في ذلك الرابط الخفي الذي جمعهم ، ذلك الشيء الذي لا يُرى، لكنه يُشعر

بكل وضوح... شيء يُشبه الرحمة حين تكبر، والحب حين ينضج والوفاء حين يصبح أسلوب حياة ولهذا ظلّ البيت كما هو... هادئًا، بسيطًا، لكنه عميقٌ كقلبٍ يعرف معنى أن يمنح، دون أن ينتظر شيئًا في المقابل.

روحُ الرّحمة

رحلةُ حبٍّ

تزرعُ النورَ في القلوب

كانت قرية فرج في تلك السنة تحمل نبرة غير مألوفة، نبرة خليط من الإنهاك والرجاء، وكأن الأرض نفسها قد نسيت أن تبتسم منذ سنين طويلة، وأن السماء تحجب ضوءها عن البشر في أمتحان صامت للقلب قبل العين.

القرية كانت تئن تحت وطأة صمت مزدحم بالأصوات الغائبة صمت يحبس الأنفاس ويضغط على الصدر، صمت يعرفه كل من عاش هنا منذ عشر سنوات ونيف، منذ أن نزف هذا المكان جرحه الواسع بلا توقف، منذ أن غادرت البراءة قلوب الناس مع كل إنفجار، وكل رحيل.

الناس تمشي بحذر، تتلفّت، تنظر إلى السماء أكثر مما تنظر إلى الطريق، كأنها تبحث عن علامة ، بصيص أمل، وعد خفي بأن القادم ألطف من الحاضر لكن هناك ما هو أعمق من الأحداث

أعمق من الإنفجارات، من الأخبار الميتة ، من وعود السياسة الكاذبة : كانت هناك حياة تحاول أن تنجو، حياة تتشبث بيد الريف بطينه، بروائحه، بطمأنينته الممزوجة بالخوف، حياة تصرخ بصمتها وتحتاج إلى من يجيب صرخاتها.

على أحد الطرق الترابية، تلك التي تؤدي إلى دار القاضي، كانت الشمس تتراجع ببطء كمن يزحف نحو غيبوبة يوم متعب ، الضوء الذي يتسلل بين أغصان الأشجار ، كان دافئًا لكنه حزين وكأنه يودع الأرض قبل أن يختفي تماماً الطريق نفسه كان يعرف ذاكرة الرجل ، يعرف رجوعه كل غروب ، خطوات سيارته الثقيلة على التراب، هدوءه حين يقترب من بيته، الطريقة التي يضع فيها مفاتيحه على الطاولة وكأنه يودع الدنيا للحظة، السلام الذي يجد فيه ملاذاً من تعب الحياة ،لكن ذلك اليوم لم يكن عادياً...اليوم كان ينتظر اللحظة التي يلتقي فيها قلب رجل بمصير ثلاثة كائنات لا تعرف من الدنيا سوى حفنة خوف وبرد، ثلاثة أرواح صغيرة على حافة الحياة، تقرأ العالم بعين لم تُفتح بعد بالكامل، وتعلم أنه مكانٌ مخيف.

قبل أن يظهر المنعطف الأخير المؤدي إلى الدار، لمح شيء على حافة الطريق ، شيء صغير أولًا، ثم تكبر معالمه كلما أقتربت السيارة، وكأن المكان نفسه يهمس له : « توقف، أنظر، لا تتجاوز...! »... كانت أنثى كلب ممدّدة على التراب، ميتة بطريقة موجعة، تلك التي تدرك فيها أن الكائن لم يمت وحده، بل مات وهو يحاول النجاة لغيره.

ملامحها لم تكن مجرد جسدٍ فارغ، بل كانت تحمل تعبيراً شبيهاً بتلك النظرة التي تحملها أم تحارب آخر أنفاسها لتبقي حياة...ما على قيد الوجود وبجانبها، كانت الحياة تصرخ ثلاثة جراء صغيرة بالكاد فتحت أعينها، تتقلب حول جسد أمّها وكأنها تتوسلها أن تعود أن تعطيهم دفءها ولو للحظة واحدة.

كان صوتهم أشبه بطعنة في قلب أي إنسان يملك بقية إحساس صوت ضعيف... لكنه يحمل غضب الكون كله، صرخة يتيمة جوع، خوف، برد، كل ذلك كان خارجاً من تلك الأفواه الصغيرة المرتجفة، كأن العالم بأسره قد أنكمش ليتركهم وحدهم مع صمتٍ قاتل مع أنهم كانوا ثلاثة، إلاّ أنهم كانوا يشبهون ثلاثة أسئلة معلقة في الهواء: لماذا غادرتِ...؟

من يحمينا...؟

هل من أحد يسمعنا...؟

أسئلة بلا إجابة، تترك الإنسان عاجزاً، وتحرّك في داخله شيئاً لا يمكن وصفه، سيارة القاضي كانت تمضي... لكن شيئاً داخله لم يمضِ كانت هناك لحظة قصيرة، ثانية واحدة ربما، توقفت فيها عيناه قبل أن يتوقف عقله، كأن الزمن نفسه قد تجمّد ليتركه وحيداً مع قرار لا يُحتمل تأجيله ، وثانية أخرى توقفت فيها يداه على المقود يتذكر فجأة كل الوجوه التي رآها تتألم بلا جدوى، كل الأرواح الصغيرة التي أختفت قبل أن تُعطى فرصة، كل الصمت الذي لم يكن صامتاً ، ثم توقّفت السيارة وهناك لحظة ثالثة... تلك الأكثر صدقاً... توقّف فيها قلبه، تشنجت أفكاره، وشعر وكأن الأرض تهتز من تحت قدميه ، نزل الرجل ، لم ينزل لأنه قاضٍ، أو لأنه رجل قانون أو لأنه يريد أن يفعل الصواب، بل نزل لأن الرحمة تُنزل الإنسان رغماً عنه، كأنها قانون السماء على الأرض، كأن القلب يملك إرادة خاصة لا تخضع لأي حسابات عقلية.

أقترب من الجراء الثلاثة ، كانوا يتراكضون بخوف داخل دائرة ضيقة حول جسد الأم، كأنهم يحاولون أن يفهموا ما لا يُفهم ، مدّ

يديه... رفع واحدًا تلو الآخر ، كانت أجسادهم خفيفة بشكل موجع، كأن الواحد منهم ليس كائناً بل سؤال يحتاج حضناً ليُجاب عنه، كأنهم يحملون كل آلام العالم وثقلها على أكتاف صغيرة جداً...تردد للحظة : هل يأخذهم جميعاً...؟

هل يستطيع الإعتناء بهم...؟

هل ستعطيه الحياة الوقت ليبني لهم ملاذًا...؟

لكن بعدها... لم يفكر.

هناك قرارات ليست بحاجة إلى تفكير ، هناك قرارات يُمليها القلب وتحسمها الرحمة، وبتلك اللحظة، أختفى كل شيء آخر ولم يكن هناك خوف، لم يكن هناك تعب، لم يكن هناك ما يربطه باليوم أو بالغد، كان هناك فقط هو وهم، وهُمّ الحياة الذي يجب حمايته بأي ثمن ، وبينما كان يحمل الجراء، بدأ الليل يزحف ببطء والبرد كان قاسياً، يقرص الجلد، يتسلل تحت الملابس، يختبر إرادته الريح حملت رائحة التراب المبلل، رائحة الغبار القديم، رائحة الموت والحياة معاً لتضيف ثقلاً على قلبه.

كل خطوة كان يخطوها كانت تجعل قلبه يدق أسرع، كل حجر صغير على الطريق كان يبدو وكأنه فخ مختبئ ينتظر أن ينسحق أو يتعثّر.

الجراء كانت تئن أحياناً، تصرخ من البرد والجوع، ويشعر القاضي بأن كل صوت صغير منهم يخترق جسده مثل شوكة حادة ، أحياناً يلتفت خلفه متوقعاً أن يظهر الكلب الضال، أو أن تظهر سيارة أخرى، أو أن يواجه أي خطر مفاجئ، فجأة، بلا مقدمات ، وكل خطوة كان يخطوها، كانت تضغط على قلبه وتجعله يراجع نفسه هل ما زال بإمكانه أن يكون ملاذاً لهم...؟

هل ستنجح الرحمة في مواجهة صخب العالم...؟

بعد مسافة طويلة، لم تعد الأشجار تحمي الطريق، ولم تعد ضوء السيارة كافياً لإظهار الطريق بوضوح ، بدأ التراب يتحول إلى وحل وبدأت المياه الصغيرة تتجمع في الحفر، لتشكل عقبات جديدة حمل الجراء كان يرهقه، كأنهم يضيفون عليه ثقلاً عاطفياً يفوق أي إرهاق جسدي.

كانت هناك لحظة شعر فيها أنه قد يسقط، أو يسقط أحد الجراء ولكن كل مرة كان يضعهم بالقرب من صدره، يشعر بدفء ضئيل

بثقة طفولية في أن الحياة لا تزال قادرة على أن تصمد ، وأخيراً بعد مشي طويل ومؤلم، لمعت في البعيد أضواء خافتة... داره الكبيرة ، في مزرعته لكنها كانت وعداً، أملاً، مكاناً يمكن أن يجد فيه الجراء الثلاثة مأوى ودفء، مكاناً يمكن أن يضعوا فيه أول خطواتهم في عالم أقل وحشية.

شعر حينها بارتياح غريب، كأن قلبه يستعيد بعضاً من هدوئه، لكنه لم يفرح بعد ، الرحلة لم تنتهِ، كانت فقط بداية فصل جديد، فصل فيه الحياة والرحمة تصبحان معركة يومية ، وعندما وصل إلى الباب وضع الجراء على الأرض بحذر، شعر بهم يرتجفون، شعور بالخطر أختفى قليلاً ليحل محله شعور بالإطمئنان لكنه لم يزل على أهبة الإستعداد لأي مفاجأة.

تلك الليلة ، بينما الريح تعوي خارج المنزل، والبرد يتسلل من الشقوق الصغيرة في الجدران، جلس القاضي معهم، يحاول تدفئتهم يهمس لهم بصوت منخفض، كأن الكلمات تستطيع أن تمنحهم الحياة من جديد، كأن كل همسة منه تقول لهم : « أنتم بخير الآن... لن أترككم وحدكم »...العودة إلى الدار... حيث تبدأ حكاية أخرى.

عاد القاضي إلى بيته الريفي في قرية فرج ... بيتٌ فيه رائحة الخبز بالتنور الطين كل صباح، ورائحة الأطفال كل مساء، ورائحة الأرض في كل الفصول ، ما إن وصل، حتى ركض الأطفال نحوه كانوا يعرفون من تعابير وجهه أن شيئاً ما يحدث وحين رأوا الجراء الثلاثة، أتسعت عيونهم، وسقطت أسئلتهم مثل المطر.

– بابا... ماهؤلاء...؟

– لماذا يرجفون...؟

–أين أمهم...؟

– لا يخافون...؟

– يموتون...؟

كانت الأسئلة كثيرة... لكن الأجوبة مؤلمة ومع ذلك، لم يكن الوقت وقت ألم وكان الوقت وقت نجاة بعد ساعات قليلة ، وبعد مشاروات صغيرة مع بعض الأهالي ذهبت إثنتان من الجراء إلى بيوت تعرف الرحمة جيداً في القرية... وبقي واحد...أصغرهم...أضعفهم... ذلك الذي كان يلتصق بصدر القاضي كأن صدره هو العالم كله ، ذلك الذي سيُسمّى بعد دقائق : فستق...الإسم الذي صار قدَراً...حين حمله الأطفال، أنفتح فمه

الصغير بطريقة مضحكة، كمن يحاول أن يقول شيئاً لا يستطيع لفظه...ضحك علي، أصغر أبناء القاضي، وقال : بابا... يشبه فستق... صغير وأبيض...!

وأنفجر الجميع ضاحكين في لحظة تفجرت فيها الحياة وسط يوم ثقيل وهكذا، وُلد الإسم ولأن الأسماء تحمل أثراً من أرواح أصحابها فقد كان « فستق » إسماً خفيفًا، عذباً ، يشبه حجمه، ويشبه قصته وأما علي... فقد وجد صديقه الذي لم يكن ينتظر ، منذ تلك اللحظة، بدأ شيء آخر ينمو في ذلك البيت : علاقة لم تكن صدفة ، علاقة أكبر من طفل وأكبر من كلب ، علاقة تشبه التوأمة التي لا يخطئها القلب.

كان علي طفلاً في الرابعة، لكن قلبه كان بحجم الريف بأكمله ولم يجد في فستق كائناً يحتاج عطفًا فقط... بل وجد فيه إمتداداً له.

كان يطعمه كما لو أن الحليب جزء من يده ، يلفّه بقماشة صغيرة كي لا يبرد ، يضعه بجانبه عند النوم ، يضحك معه...، يناديه... يبحث عنه حين يغيب...لقد وجد علي في فستق أول معنى للصداقة...وأول معنى للحب...وأول معنى للمسؤولية التي تكبر مع الطفل فتجعله رجلاً صغيراً ، وفستق... من جهته... كان

يعرف من علي صوته... ورائحته... وخطواته... وحتى خوفه وضيقه كأنهما يتحدثان بلغة لا يسمعها سواهما.

كبر فستق... وكبرت معه القصة ، والأيام في القرية لا تقاس بالساعات ولا بالأشهر إنها تُقاس بما تنبته من ذكريات ومع كل يوم، كان فستق يكبر لم يعد ذلك الجرو الأبيض الصغير ، صار قوياً، سريعاً، ممتلئاً بالحياة ومع ذلك، لم يفقد شيئاً من طيبته صار حارس الدار يقف عند باب البيت، كأنه يقف على حدود عالمٍ يحبه يحميه لا من الخطر فقط... بل يحمي دفئه وكانت له مواقف...مواقف تجعل أي عائلة تقول بثقة : هذا ليس كلبًا... هذا فرد منّا ، في إحدى الليالي الشتوية، إنطفأت الكهرباء كانت الريح تعوي والمطر يضرب سقف الصفيح، والبيت يرتجف كأنه يشارك السماء حزنها ، خاف علي... بكى بصوت مكتوم...فجأة، جاء فستق...وضع جسده فوق قدمي علي... ثم زحف حتى وضع رأسه على صدره...وظل على هذا الحال حتى نام الطفل ، كانت تلك الليلة أول مرة يدرك فيها علي أن الحماية قد تأتي من كائن لا يتكلم...لكن قلبه يتكلم كثيراً.

مرض علي... وكيف يُمكن لوفاء كلب أن يصبح دواء...؟

مرض علي مرة، حمى قوية ، أغلق عليه أهله باب الغرفة حتى يستريح لكن فستق جلس أمام الباب ثلاثة أيام ،لم يأكل...لم يشرب...لم يتحرك...كان ينتظر وكان كلما سمع أنين الطفل أرتعش جسده الصغير وحين خرج علي أخيراً، ضعيفاً...قفز فستق وكأنه يستعيد الحياة من جديد ، الموقف الذي أثبت أن الجوهر لا يحتاج لغة حدث مرة أن رمى طفل حجراً على علي ولم يهاجمه فستق... بل وقف بينهما...رفع صدره...وشدّ رقبته...وثبّت نفسه بطريقة يفهمها أي كائن : لا تقترب منه ، لم يُظهر عدواناً لكنه أظهر معنى الحماية أظهر جوهره، لا صوته ، كيف أصبح جزءاً من البيت... جزءاً من الذاكرة...؟

مرت الايام كبر الأطفال، وكبر فستق، وكبرت معه القصة صار البيت يعرفه كما يعرف الساكنين فيه ، صار ضيوف البيت يسمعون عنه قبل أن يرَوه ، لم يعد مجرد كلب ، صار علامة ، صار ذكرى لمسّ الرحمة ، صار درساً حياً للأطفال : أن الحياة ليست بمن نأخذ منه... بل بمن نعطيه ، أن الكائن الضعيف حين نقف معه يصبح جزءاً من قوتنا وأن الرحمة ليست حدثاً... بل بداية حياة جديدة ورغم مرور الوقت، لم يتغير شيء في جوهر العلاقة بينهما

ظل علي يحمل في قلبه ذلك الشعور الأولي بالدهشة والفرح حين رأى فستق لأول مرة، وفستق ظل يحمل في عينيه الولاء المطلق لذلك الطفل الذي أصبح الآن شاباً صغيراً.

كل يوم كان يحمل درساً جديداً، وكل موقف كان يثبت أن الحياة لا تُقاس بما نملك، بل بما نزرعه في قلوب من حولنا وفي الصباحات الباردة، كان علي يركض إلى الباحة قبل أن يذهب إلى المدرسة وفستق يركض خلفه، يركض ليس لمجرد الحركة، بل ليكون مع علي ليحرسه، ليشعره بأن العالم أكبر من المدرسة، لكنه أصغر كثيراً من القلب الذي يحميه.

أحياناً، يكتشف علي أن فستق يعرفه قبل أن يسمع صوته، يعرف ما يشعر به قبل أن يفتح فمه بالكلام، وكأن هناك لغة سرية بينهما لا يفهمها أحد سواه وفي موسم الحرائق التي كانت تهدد الحقول ، لم يكن فستق مجرد كلب يحرس البيت، بل صار كائناً يقود الجميع في المزرعة، يشير بالأقدام إلى الأماكن التي تحتاج إلى تدخل سريع يزعق بصوته الذي صار أقوى وأعمق مع مرور الوقت، وكأن الطبيعة نفسها تعلمت أن تحترم حضوره.

كبر علي، وتغيرت أحلامه، لكن قلبه ظل مرتبطاً بفستق ، صار يكتشف معنى المسؤولية بعمق، ليس فقط تجاه الكلب، بل تجاه كل ما حوله ، تعلم أن حماية الضعيف ليست مجرد كلمات، بل أفعال يومية، بدايةً من طعام فستق، وإنتهاءً بالإستماع إلى قصص الجيران، ومساعدة من يحتاج في القرية.

ذات يوم، أندلعت أزمة حقيقية في القرية جاء صبي صغير يبكي فقد والديه في حادث، وكان الضياع في عينيه لا يوصف ولم يتردد علي، وفستق كان بجانبه في كل لحظة.

حمل علي الصبي إلى البيت، وبدأ فستق يتصرف بطريقة لم يكن أحد قد رأى مثلها : كان يحرس الصبي، يضع نفسه بينه وبين أي صوت مخيف، ويقضي الليالي بجانبه حتى يهدأ قلبه الصغير ، تعلم علي أن الشجاعة ليست في الكلمات، بل في القدرة على أن تكون صبوراً، وحاضراً ، ومتمسكاً بالرحمة مهما كانت الظروف صعبة ومع مرور السنين، بدأت قصص علي وفستق تنتشر بين القرى المجاورة، بل وأحياناً في القرى البعيدة وجاء الناس ليس فقط لرؤية علي، بل لرؤية فستق، ليشاهدوا العلاقة الفريدة التي جمعت بين إنسان وكائن آخر.

أصبح فستق نموذجاً للحب بلا شروط، وللصدق في المشاعر وللقوة الهادئة التي لا تحتاج إلى صخب وفي الشتاء القارس، حين تتجمد المياه في الأنهار الصغيرة، وكان الأطفال يخافون من الريح والبرد، كان فستق دائماً موجوداً وكان يدفئ الأطفال بجسده ويقف على حافة الباحة ليراقب الطقس وكأن كل شيء تحت سيطرته.

صار البيت مكاناً يُشعر الجميع بالأمان، ليس فقط لأن جدرانه طينية، بل لأن قلب فستق الكبير يملأ المكان بالدفء ، كبر علي وكبر معه فستق، لكن فستق لم يفقد شيئاً من طيبته الأولى وصار يحرس البيوت المجاورة ، ويرافق المزارعين في حقولهم يهب للحيوانات الصغيرة إذا أصيبت، وكأنه يعلّم العالم درساً عن الرحمة الصامتة تعلم علي أن الكائن الضعيف يمكن أن يصبح قوة عظيمة إذا أحب بصدق، وأن الوفاء لا يُقاس بالكلام، بل بالفعل المستمر ومع مرور الوقت، أصبحت الأيام في البيت تقاس بالذكريات لا بالساعات.

كل زاوية في البيت تحكي قصة، كل نافذة تحمل ضوءاً من ضحكات الماضي، وكل طابق من البيت يشهد على لحظات الألم والفرح معاً.

صار فستق جزءاً من كل ذكرى، وكل ذكرى جزءاً من قلب علي. وتعلم أن الحياة الحقيقية ليست في جمع الأشياء، بل في مشاركة اللحظات، في الوقوف مع من يحتاج، في الإحتفاظ بالحب مهما تغيرت الظروف وذات مساء، بينما كان المطر يتساقط بغزارة جلس علي وفستق أمام المدفأة، ينظران إلى الأمواج الصغيرة من الضوء والظل التي ترقص على الجدران الطينية.

شعر علي فجأة بأن الحياة كلها في هذه اللحظة، في قلب صغير ينام على صدره، وفي كلب صامت لكنه يتحدث بلغة أصدق من كل الكلمات.

مرت الشهور، وكبر علي حتى صار شاباً يملك قوةً في قلبه لا تأتي من المال أو المكانة، بل من الرحمة التي زرعها فستق فيه وكبر فستق أيضاً، لكنه ظل يحتفظ بتلك النظرة الأولى التي عرف بها علي بتلك الحماية التي لم تتغير، بتلك الوفاء الذي أصبح جزءاً من كل شيء في البيت.

صار البيت، بفستق وعلي، رمزًا للسلام، للوفاء، للحياة التي تُبنى بصبر وهدوء وكان البيت يقع على أطراف القرية، بين أشجار الزيتون والتين، وعلى بعد خطوات قليلة من النهر الذي يلمع في

أشعة الشمس كمرآة كبيرة تعكس السماء ، وكان البيت بسيطًا في بنائه، قديم الطراز، لكنه مليء بالدفء الذي لا يُشترى، ومليء بالحكايات التي لم تُكتب بعد ، كل حجر فيه، وكل شرفة، وكل نافذة صغيرة، كان يحكي قصة صامتة عن العيش بهدوء، عن حب الحياة بلا تزييف، عن احترام كل شيء حي، صغيرًا كان أم كبيرًا وفستق، الكلب الصغير، لم يكن مجرد حيوان أليف في البيت وكان كيانًا يشاركهم حياتهم بروح مرحة، لكنه في الوقت نفسه كان مرآة للبيت وسكانه ، كان يراقب كل شيء، يلتقط كل شعور ويستجيب لكل تغير، كما لو أن قلبه الصغير يحمل حكمة أكبر من عمره ، كان علي، صاحب البيت، رجلاً صامتًا لكنه مليء بالرحمة والحكمة، يعرف كيف يمنح الآخرين شعور الأمان دون كلام...؟

كيف يجعل كل من يزور البيت يشعر وكأنه وجد مأوى لا يشبه أي مأوى آخر في العالم...؟

البيت صار مدرسة للحياة، يعلم القلوب الصغيرة معنى الصبر يعلمها أن الحب الحقيقي لا يُقاس بالكلمات أو بالهدايا، بل بالاهتمام الصامت، بالوفاء الصادق، باللحظات الصغيرة التي تمر

بلا ملاحظة لكنها تُثبت قيمتها مع مرور الوقت وكان الفستق يركض بين الغرف، بين الحديقة والفناء، يراقب الأطفال وهم يتعلمون الحياة من بساطة البيت، من نسمات الهواء، من أصوات الطيور، من رائحة الأرض بعد المطر وكل شيء في البيت كان جزءًا من درس أكبر، درس عن الإنسانية، عن الرحمة، عن الصبر ومع مرور الأيام، صار البيت والفستق وعلي مركزًا للحياة نفسها وكان الجيران يأتون دون دعوة، فقط ليجلسوا في الصمت، يستمعوا لصوت الطبيعة، لصوت الفستق وهو يركض، لصوت علي وهو يبتسم بلا كلمات، وكل من يأتي يخرج بحقيقة صغيرة في قلبه، كأن الحياة تصبح أخف، أكثر وضوحًا، أكثر رحمة ومع كل صباح جديد، ومع كل غروب يلون السماء، ومع كل ضحكة طفل أو نباح فستق ، كانت الحياة تستمر، لكن بطريقة أجمل، أكثر هدوءًا أكثر وفاءً.

أحيانًا، في الليالي الصافية، كان علي يجلس على الشرفة، ينظر إلى النجوم، ويحكي في صمت قصة البيت وليس لأحد، بل للسماء وللفستق الذي يجلس بجانبه، وكأنهما شريكان في كل ما يحدث

كان يتذكر كيف بدأت الحياة هنا، كيف تحولت البساطة إلى معنى وكيف تحولت الرحمة إلى قوة تحفظ كل ما هو ثمين...؟

كل ضحكة كل حركة، كل صوت صغير، كان يحمل رسالة صامتة عن الحب والوفاء.

البيت صار كتابًا مفتوحًا، لكن كتابًا لا يُقرأ بالكلمات، بل يُقرأ بالقلوب وكل من دخل هذا البيت شعر فورًا بأن هناك سرًا ما سرًا لا يراه إلا من يعرف كيف يقرأ القلوب، سرًا يعلمنا أن الرحمة يمكن أن تولد من أصغر الكائنات، وأنها تنمو لتصبح القوة التي تحفظ كل ما هو ثمين، أن الحب الحقيقي لا يحتاج إلى ضوضاء، بل يحتاج إلى صمت، إلى حضور، إلى متابعة، إلى وفاء يومي صغير يتراكم ليصبح إرثًا حقيقيًا.

مرت السنوات، والبيت وفستق وعلي صاروا جزءًا من القرية نفسها جزءًا من كل شيء فيها والأطفال الذين رآوا فستق وهم يكبرون معه، تعلموا كيف تكون الحياة، ليس بما يملكون، بل بما يعيشون الكبار الذين جاءوا للبيت بحثًا عن هدوء، تعلموا أن القوة في الصبر، أن العظمة في الرحمة، أن الوفاء ليس مجرد كلمة بل فعل مستمر ، كل يوم كان يضيف صفحة جديدة إلى قصة البيت، كل

يوم كان يكتب درسًا جديدًا في معنى الحياة، دون كلمات، لكن بكل معنى... بكل معنى الرحمة، بكل معنى الحب، بكل معنى الوفاء ، وهكذا، صار البيت أكثر من بيت ، صار مكانًا تتلاقى فيه الأرواح قبل الأجساد، وصار حضنًا يرحب بكل من يأتي بحثًا عن السلام، عن الأمان، عن لحظة يمكن فيها للروح أن تلتقط أنفاسها بعيدًا عن ضوضاء العالم وضغوطه، بعيدًا عن الصراعات التي تعتقد أنها لا تنتهي وصار البيت مدرسةً للصبر، حيث يُعلّم كل حجر فيه درسًا عن الثبات، وكل جدار يهمس بقصة عن الوفاء وكل نافذة تفتح على الحديقة تذكّر من يطل منها بأن الجمال لا يحتاج إلى زخرفة، وأن النقاء الحقيقي يولد من البساطة ومن القدرة على الانتظار دون استعجال، ومن الإيمان بأن الزمن أحيانًا هو من يحفظ المعاني ويمنحها قيمتها الحقيقية.

في هذا البيت، لم يكن الصمت مجرد غياب للكلمات، بل لغة تتقنها القلوب، لغة تسمح للأفكار أن تتدفق، وللذكريات أن تجد مكانها دون أن تُقيد أو تُسرق، وللحزن أن يمر مرور الكرام دون أن يترك أثراً، وللفرح أن ينساب بهدوء، كما ينساب النهر بين الحقول بلا صخب، بلا مطالب، بلا شروط وصار البيت مرآةً للإنسانية

يُظهر كيف يمكن للبساطة أن تصنع أعظم الدروس، وكيف يمكن للحب أن يزرع نفسه في أركان المكان، فتكبر جذوره في كل زاوية في كل أثاث، في كل تفصيل صغير، في كل نفس يأخذه الداخل إليه.

صار البيت تاريخًا مستمرًا، ليس في الكتب ولا في الصحف، بل في القلوب التي دخلته، في العيون التي نظرت إلى حدائقِه، في الأيادي التي لمست أبوابه، وفي الأرواح التي تعلمت أن تعطي قبل أن تطلب، وأن تحب قبل أن تنتظر، وأن تعطي للآخرين ما يحتاجونه قبل أن تتوقع أي مقابل وصار البيت قصصًا متواصلة، لا تُنسى يكتبها كل من يعيش فيه أو يمر به، قصصًا عن الشجاعة الهادئة عن الصبر المستمر، عن الوفاء الذي لا يكل، وعن الحب الذي لا يعرف الانطفاء وكان كل من يخرج منه يعود إلى العالم مختلفًا، يعود وقد حمل معه شيئًا لم يعرف أنه كان يبحث عنه: شعورًا بالطمأنينة إيمانًا بأن هناك ما يستحق أن يُحفظ ويُحترم، وأن هناك قلبًا كبيرًا يكفي ليحتوي كل ما هو ضعيف، كل ما هو تائه، كل ما هو مجروح ، وصار البيت ملاذًا حقيقيًا، ليس فقط للجسد، بل للروح للخيال للفكرة، للأحلام الصغيرة والكبيرة معًا، للذكريات التي

تتشظى وتحتاج إلى مكان لتتجمع فيه، للقلوب التي تبحث عن موطن لتستريح فيه بعيدًا عن القسوة، عن الغضب، عن الخيبات المتكررة وهكذا، صار البيت قوة هادئة، قوة لا تُقاس بما يمتلكه من حجر أو خشب، بل بما يمتلكه من قدرة على الإلهام، على التعليم على التغيير ، صار البيت مصدرًا للطمأنينة، للأمل، للقدرة على البدء من جديد كل يوم، بلا خوف، بلا شك، بلا حواجز، بلا أعذار وصار البيت تذكرة دائمة بأن كل بداية صغيرة، كل فعل بسيط، كل لحظة صمت، يمكن أن تتحول مع الوقت إلى شيء أكبر من الحياة نفسها، شيء يحمي كل ما هو جميل ويمنحه مساحة ليكبر ويستمر.

صار البيت – ببساطته، بهدوئه، بصمته – رسالة حية لكل من يريد أن يعرف أن الحياة ليست صراعًا دائمًا، وليست مطاردة بلا معنى، بل هي مساحة يمكن أن تُعاش بمحبة، بتفهم، بإخلاص ووفاء، بصبر... وأن أي شيء صغير في البداية، مهما بدا تافهًا يمكن أن يصبح القوة التي تحمي كل ما هو عظيم وجميل في هذا العالم ، فالبيت ليس مجرد جدران وسقف، ولا هو مجرد فراغ تُملأه

الأثاث والألوان، بل هو كيان حي، يشبه القلب الذي ينبض في الصدر، يتأثر بكل ضحكة وكل دمعة، بكل خطوة وكل همسة.

في هذا البيت، تتجسد القيم التي لا تُرى بالعين، لكنها تُحس بالروح: الصبر الذي يُطوّل النفس، والمحبة التي تزرع الأمان، والوفاء الذي يربط الماضي بالحاضر، والتفهم الذي يجعل كل اختلاف نقطة قوة لا ضعفًا وهنا، كل شيء صغير يمكن أن يتحول إلى فعل عظيم؛ كل ركن من أركان البيت يحمل صدى الذكريات، وكل نافذة تطل على الخارج تحمل وعدًا بأن العالم لا يزال مكانًا صالحًا للعطاء، للسلام، للحياة التي تُبنى بهدوء وصبر وإخلاص.

البيت يعلم أن الجمال لا يحتاج إلى صخب، وأن القوة لا تُقاس بالسطور المكتوبة أو بالأفعال الظاهرة، بل بما يتركه أثرًا خفيًا في القلوب. فالهدوء هنا ليس سكونًا، بل حركة خفية، مثل النهر الذي ينساب بصمت ويغذي كل شيء حوله، مثل الضوء الذي يتسلل بين الشقوق الصغيرة ويمنح الحياة لكل زاوية مظلمة وكل شيء مهما بدا ضعيفًا أو ضئيلًا، له القدرة على أن يصبح الحصن الذي يحمي كل ما هو ثمين، كل ما هو نابض بالجمال والحياة ، والأهم من ذلك، أن البيت ليس مكانًا للانغلاق، بل هو مساحة للتفتح

للعيش بوعي كامل، لفهم أن الحياة ليست فقط ما نراه أو نلمسه بل هي ما نشعر به، ما نزرعه في القلوب، ما نتركه أثرًا يواصل العمل حتى بعد رحيلنا ففي كل قطعة، كل طاولة، كل كرسي، كل حجر من الأرض، يمكن أن يتجسد درس كبير : أن كل بداية مهما كانت بسيطة، هي بوابة لعالم أكبر، وأن الحب والصبر والإخلاص يمكن أن يغيروا الواقع بأكمله ، وعندما يأتي الليل، ويغلق البيت أبوابه بعد يوم طويل، يظل صدى كل لحظة عاشها الناس فيه يتردد بين الجدران وتبقى الذكريات معلقة في الهواء، تتنفس مع كل نفس، وتعلّم كل من يمر من هنا أن الحياة ليست سباقًا للفوز، ولا صراعًا للهيمنة، بل هي فن العيش بسلام داخلي ورضا بالقلب، أن يكون الإنسان حاضرًا بكل شعور، بكل عمل، بكل كلمة، وأن يفهم أن كل ما هو صغير في البداية، مهما بدا تافهًا، يمكن أن يتحول إلى الأساس الذي يقوم عليه كل عظيم في هذا العالم.

هكذا، يصبح البيت أكثر من مجرد مكان للسكن؛ يصبح مدرسة للحياة، ومقامًا للتأمل، ومرآة تعكس أعمق معاني الإنسانية ويصبح البيت شهادة صامتة على أن الحب والصبر والوفاء ليسوا مجرد

كلمات، بل أفعال تُصنع في الصمت، تُحفظ في الذاكرة، وتنتقل من قلب إلى قلب، من جيل إلى جيل، لتعلّم كل من يأتي بعدنا أن الحياة يمكن أن تُعاش بسلام، وأن كل شيء صغير يمكن أن يكون بداية لشيء عظيم لا ينتهي.

مَلاذُ الأرواح

رِحلَةُ الزائِرينَ نَحوَ كربَلاء

لم يكن البيت في تلك الأيام يشبه أي بيت، لا من قريب ولا من بعيد...كان، كلّما أقتربت أيام الأربعين، يتخفّف من جدرانه شيئاً فشيئاً حتى يبدو كأن الطين يلين، كأن السقف يعلو، وكأن الأبواب تتّسع لتستقبل غير محدود من الخطوات فالبيوت التي تقف على طريق المشاية ليست بيوتاً، إنها محطّات روح، ومستودعات رحمة وموانئ مؤقتة ترسو فيها القلوب قبل أن تتابع حجّها إلى كربلاء دار القاضي كانت واحدة من تلك الدور التي إذا مرّ عليها الزائر شعر بأنه يمرّ على بيتٍ يعرفه منذ زمن بعيد، وكأن نسباً خفياً يجمعه بأهله.

المنزل متواضع، لكنه متخم بضياء لا يأتي من مصابيح الكهرباء ولا من نار التنور...ضياء يشبه الهواء حين يمرُّ على صدر عاشق ويوقظه دون أن يلمسه ، عشية تلك الأيام، كان كل شيء في الدار يستعد، دون أن تحتاج النساء والرجال إلى إعلانٍ واحد ، اليد

تعرف عملها قبل أن تُطلب منها المهمة، والقلب يعرف بوصلة الطريق قبل أن يُسأل أين يتجه.

أعتاد أهل الدار أنّهم حين يسمعون أول وقع أقدام الزائرين على الطريق الترابي، يبدأ البيت بالتمدّد والأبواب تُسند إلى الجدار كي لا تضيق على الدّاخلين ، وهناك ساحة وسط الحوش تُفرش بالسجاد، ثم يختفي السجاد تحت طبقات الأقدام.

الغرفة الداخلية تُفرش للنساء، والغرفة القريبة من التنور للرجال والسردَق الخارجي يصبح صالة عابرة للقلوب المنهكة ، لكن الغريب حقاً ليس في الحركة ، بل في الإحساس الذي يمرّ في المكان...كأنّ البيت نفسه يتنفّس كأنّ الجدران تحسّ بالضيوف وتتهيأ لهم ، كأنّ الطين يعرف أنه في خدمة من مشى إلى الحسين « عليه السلام » ولعلّ هذا ما جعل الطفل علي يشعر أنه لا يكبر في بيتٍ عادي.

كان يرى الرجال يحملون القدور الكبيرة وكأنهم يحملون أمانة ويرى النساء يطبخن بقلوبٍ معلّقة بالسماء ويرى الغرباء يدخلون ويأكلون، ويبكون، ويغادرون دون أن يعرفوا أسماء أهل البيت... لكنهم يغادرون بشيء من الطمأنينة التي لا تُشترى.

علي، رغم صغر سنّه، كان يعرف أنّ هذا البيت لم يُبنَ ليكون مجرد بيت، لقد بُني ليكون طريقاً داخل طريق، وممراً لمن ضاقت به المسافات، وسقفاً لمن لم يجد سقفاً غير التوكل.

كان عليّ في تلك السنة قد بدأ يميّز بين أنواع الوجوه وتعلم أنّ وجوه المشاية لا تتشابه كما يظن البعض...بعضهم يمشي كأنه يحمل العالم فوق كتفيه وبعضهم يمشي خفيفاً كأن الهواء يدفعه وبعضهم يمشي محمولاً على دمعة وبعضهم يمشي وكأنه يهرب من نفسه.

كان يوزع الماء، لا لأنه مأمور، بل لأنه يرى في العيون ما يجعله يريد أن يخفف عنها ، أحياناً كان يناول قنينة الماء لرجل يظنّه قوياً فيرتجف الرجل وهو يشرب وأحياناً يعطي الكأس لامرأة تتعب من المسير، فتبتسم له كأنها أمّ ثانية وُجدت في الطريق وكان يحبّ الغرباء حباً لا يعرف سببه : فكل من أراد الحسين « عليه السلام » صار قريباً حتى وإن لم يلتقِ به من قبل.

في تلك الليلة، حين طال السهر، خدم الصغير حتى غلبه النعاس ونام بين الزائرين، قرب أقدامهم، كأنه واحد منهم، كأن الطريق ضمّه قبل أن يضمه فراشه.

كانت الأنفاس تتعاقب حوله، والوجوه تتحرك فوقه، والليل يسدل ستره على السردَق ، والبرد الخفيف يمرّ على خديه، لكنه لم يشعر إلاّ بالأمان... ذلك الأمان الذي لا يأتي من قرب الأم أو الأب بل من قرب الذين قصدوا كربلاء.

كان يشعر أنه ينام في حضرةٍ لا تُرى ، عند الفجر، كان البيت قد بدأ يستيقظ على أصوات الأوعية، قدور تُسحب، أغطية تُفتح ماء يُغلى، شاي يُصبّ في وعاء كبير ورائحة الخبز تبدأ أول قصائد النهار ، والنساء لا ينتظرن شروق الشمس، فالنور الذي في قلوبهن يبدأ قبل النور الذي في السماء والرجال يشعلون النار وكأن إشعال النار طقس من طقوس الطاعة ولم يكن هناك من يسأل : لماذا نفعل هذا...؟

بل كان السؤال الوحيد : ماذا يحتاج الزائر الآن...؟

وتلك العبارة وحدها كانت كافية لتقسم الليل نهارين سرّ البيوت التي تخدم ، الذين لم يختبروا طريق المشاية لا يعرفون معنى أن يتحول بيت بسيط إلى عالم كامل ، ليس الأمر طبخاً وتقديم ماء فحسب بل الأمر أكبر من ذلك بكثير.

إنّه إعلان عملي أنّ الجسد ليس لنفسه فقط ، وأن اليدين ليستا ملك صاحبهما وحده، وأن البيت الحقيقي هو ذلك الذي يسكنه الناس قبل أصحابه.

الناس الذين يدخلون إلى دار القاضي لا يعرفون كم تعبت النساء قبل مجيئهم : لا يعرفون أن الماء الذي يشربونه حملته أيدٍ متعبة ،وأن الخبز الذي يأكلونه عجنته نساء لم يغادر التعب ظهورهن، وأن الفراش الذي ينامون عليه فُرش قبل دقائق بيد علي أو أحد الرجال الذين باتوا يسابقون الزوار في التعب ولكنهم يعرفون شيئاً واحداً : أن قلب البيت أوسع من الطريق.

عليّ... حين يتعلم الطفل أن يكون رجلاً دون أن يفقد طفولته كان من الممكن أن تسرق الخدمة طفولته لكنها لم تفعل ، على العكس، جعلته الطفولة أجمل، لأنّ الطفل حين يخدم من يحب، لا يكبر سريعاً... بل يكبر بشكلٍ مختلف.

يجمع بين عفويته وبراءة قلبه، وبين مسؤولية تجعله أقرب إلى الرجال.

كان عليّ يعود أحياناً إلى أمه ويقول لها : يمّه... هذا الرجل لما شرب الماء بكى... لماذا... ؟

فتجيبه الأم بإجابة لا تُنسى : يا بُني... بعض الناس عطشهم ليس عطش ماء... عطش روح...هكذا فهم عليّ منذ صغره أن الماء نفسه ليس ماء وأن اليد التي تقدّم الماء لا تقدم شراباً... بل تقدّم رحمة ، وحين ينام البيت عادةً، يبقى السكون سيداً...لكن في أيام الأربعين، الليل شيء آخر لا ينام ولا يُهزم نشاطه يشبه حركة قلبٍ يخاف أن يفوته نبض.

في السردَق الخارجي، حيث نام علي، كانت الظلال تتحرك ككائنات حيّة رجال ينهضون ليصلّوا نساء تجلس قرب أطفالهن من شبع بالطعام يشكر ومن أنهكته الخطوات يبكي ليرتاح ومن فقد عزيزاً يجعل من الطريق عزاءً مفتوحاً ومن نذر نذراً فجاء يوفيه ولو زحفاً تلك اللحظات صنعت في قلب الطفل كتاباً لا يُنسى أيقن أنّ الإنسان حين يمشي لكربلاء لا يشبه نفسه حين يمشي لأي مكان آخر.

هناك شيء يتغير...شيء يشبه الطهارة التي تأتي بعد بكاء طويل حين بدأ الفجر يلوّن طرف السماء، لم يكن المكان يحتاج ضوءاً البيت كان مشتعلاً بالفعل : أصوات النساء، طرق القدور، نَفَس النار، رائحة الهيل، وهسيس الخبز الذي يلتصق على جدار التنور

كلها تشكل موسيقى ليست من الأرض وعلي يستيقظ ويقف عند الباب، يتأمل الرجال وهم يشعلون النار يرى الشرر يتطاير، فيتخيل أنه نجم يرى الدخان يصعد، فيراه دعاء يرى الرجل الذي يضع الحطب وكأنه يضع عمره كله خدمةً للحسين « عليه السلام »

هنا شعر الطفل أنّ الفجر الحقيقي ليس في السماء... الفجر الحقيقي هو الذي يخرج من قلب الخادم ومع أول خيط نور، بدأ الزائرون يتدفّقون من جديد كل واحد منهم يحمل قصة لا تشبه الأخرى علي أصبح يقرأ القصص دون أن يسمعها: هذا الرجل فقد إبنه العام الماضي... لذلك يسير وحده وتلك المرأة ترفع يديها بالدعاء كل عدة خطوات... لأنها تحمل أماني بيت كامل.

هذا الشاب يمشي بجرحٍ في قدمه لكنه يبتسم... لأن الألم جزء من العهد وهذا العجوز ينظر للأطفال بحنان... لأنه يذكرهم بأحفاده الذي تركهم ليصل إلى الحسين « عليه السلام » .

كان علي يراقب، ويبتسم، ويقدّم الماء، ويتعلم...كان يتعلم ما لا يدرّس في المدارس : أن الإنسان يمكن أن يكون أقوى مما يظن، وأنّ الحسين « عليه السلام » يجذب القلوب جذباً لا تشبهه قوة في العالم.

طوال النهار، كان البيت يتحول إلى ما يشبه خلية نحل، لكن النحل يجمع العسل... وهنا يجمع البركة لا هدنة، لا توقف، لا إستراحة طويلة والعجيب أنّ التعب لا يكسر أحداً... بل يجعلهم أثبت ، النساء يبدأن الطبخ قبل أن تنتهي الوجبة الأولى ، الرجال يملؤون القدور بالماء قبل أن تشحّ الكؤوس وعلي يتنقّل بين الداخل والخارج كعصفور صغير لا يتعب.

كل ذلك جعل البيت يبدو كأنه يملك روحاً مستقلة روحاً أكبر من أصحابه... أقوى من طاقاتهم...أوسع من مساحته...وأكثر تواضعاً من كل ما فيه وكان المشّاية يمرّون أمام الدار كأنه ممرّ لا ينتهي لكن الحقيقة أنّ الطريق هو الذي كان يأتي إلى البيت، لا البيت إلى الطريق.

كان كل شيء يشير إلى أن المكان ليس ملكاً للعائلة : القدور... للزائرين ، الماء...للزائرين ، الفراش... للزائرين ، الأيام... للزائرين والقلوب... للحسين « عليه السلام » وبين هذا كله، كان عليّ يكتشف شيئاً جديداً كل يوم : أن للخطوات صوتاً يشبه الدعاء وأن للوجوه نوراً يشبه البسملة وأن الطريق ليس تراباً.. الطريق ذاكرة وفي آخر يوم من أيام الخدمة، حين بدأ المدّ البشري يقلّ قليلاً

جلس علي قرب باب السردَق، يتأمل الطريق سأله أحد الرجال : علي، لماذا اليوم تبكي...؟

مسح الطفل عينيه وقال : « ليس حزن... لكن وجدت الطريق يعلّم عليّ أكثر... ».

ضحك الرجل وقال : « هذا بيتك يا علي... لكن الطريق، هذا طريقك الثاني...» ، ومنذ ذلك اليوم، لم يعد عليّ يرى البيت على أنه أربعة جدران البيت صار عنده مكاناً يتوسع بقدر نية أهله ويضيق بقدر الأنانية، ويكبر بقدر ما يخدم والطريق...الذي نام عنده، وأستيقظ فيه، ووزع الماء عليه، صار بالنسبة له معلماً أكبر من العمر نفسه ، وحين كبرت الأيام قليلاً، وفُرغت القدور بعد آخر وجبة، وهدأ البيت، جلس الجميع كأن تعبهم هبط دفعة واحدة لكن التعب كان جميلاً مثل يدٍ خادمة...مثل خطوة زائر مثل دمعة تسقط دون أن توقظ من يراها.

النساء أستندن إلى الجدار، والرجال تنفسوا بعمق، وعلي جلس بينهم كأنه واحد منهم ، لا أحد قال إنه تعب... رغم أن الأجساد تُعلن ذلك لأن من يخدم الزائر، يشعر أنه خدم نفسه قبل الآخرين ومن يقدّم الماء في طريق الحسين « عليه السلام »، يعطش آخر

الناس ومع مرور الأيام، بدأ عليّ يلاحظ أشياء لم يكن يلتفت إليها من قبل.

أصوات البيت الصغيرة، مثل وقع القدور على الأرض، لم تعد مجرد أصوات... بل صارت لغة. لغة تقول: « هنا حياة، هنا حب، هنا إنتظار » ، وعندما كانت الرياح تعصف في الشوارع، كان عليّ يشعر بأنها تحمل معه رسائل الزائرين، همساتهم، ودموعهم الصامتة وأبتساماتهم الخفية.

في كل صباح، كان عليّ يرى كيف تتحوّل حركة البيت إلى طقس من طقوس، طقس لا يعلم به أحد خارج هذا المكان ، النساء برغم التعب، يتحركن بانسيابية غريبة، كل واحدة تعرف موعد الخطوة التالية قبل أن تفكر فيه والرجال، رغم ثقل القدور والماء يتبادلون النظرات القصيرة، كأنها إشارة سرية بين محاربي طريق ، كل شيء هنا كان يتناغم بطريقة تفوق أي موسيقى أو رقصة.

كانت ليلة الأربعين في قرية فرج أطول من أي ليلة عرفها أهل القرية.

بيت القاضي، الذي أعتاد على أن ينبض بالحياة في كل عام، كان في تلك الليلة أشبه بعالم قائم بذاته.

من بعيد، يمكن أن ترى الأضواء تتلألأ بين البيوت، ورائحة الخبز الطازج تمتد في الأزقة، فيما تتعالى أصوات النساء والرجال والقدور وكأنها لحن لا ينتهي، إيقاع حياة صاخب يضم الزائرين قبل أن يذهبوا إلى كربلاء.

الناس يتدفقون عبر الطريق، بعضهم يمشي ببطء، والبعض الآخر يتوقف بين الحين والآخر، يضع يديه على قلبه أو يرفع يديه بالدعاء، أقدامهم تصنع أثراً على الأرض الترابية، وكل خطوة تحملها الروح قبل الجسد وفي هذا المكان الصاخب، كان الطفل علي بصغر سنّه، يحمل دوراً أكبر من عمره.

يوزع الماء على الزوار، يبتسم لهم، يراقب كل حركة، كل نظرة، كل دمعة أو ابتسامة وبجانبه، كان فستق الجرو الأبيض، عيناه ترقبان كل ما يحدث، أذناه تتحركان مع أي صوت غريب، وكأنه يعرف أن الليل يحمل أسراراً لا يعرفها البشر.

حين جاء الفجر، بدأ البيت ينشغل كما أعتاد القدور تُسحب النار تُشعل، الشاي يُصب في الأباريق، والنساء يتنقلن بين المطبخ والغرف لكن هناك شيء غريب... شيئاً لم يحدث من قبل.

أم علي، وهي تجهز الطعام، لاحظت الفراغ... لم تجد إبنها علي ولا فستق.

بدأ قلبها يخفق بقوة، وصرخت بصوت أرتعش بين الدموع : علي... فستق... أين أنتما...؟

القاضي، الذي كان يستعد لإستقبال الزوار، شعر بهزة في صدره هرع إلى داخل البيت، ينادي بصوت صار : أين الطفل...؟

أين فستق...؟

بدأت رحلة البحث، وكل فرد من العائلة تحرك للبحث عنه ، سألوا الأخ الأكبر فارس، وسألوا الجد الشيخ عبدالحميد، الأعمام ولم يجد أحدهم أي أثر للطفل علي أو الجرو فستق قسم منهم بدأ بالإفتراض الأسوأ : « ربما أختطفه أحد...!».

قسم آخر بدأ البحث في النهر القريب، على ضفافه، وفي جميع الدروب الترابية المألوفة ، البيت الذي كان ينبض بالحياة أصبح ساكناً للحظة، كأن الروح نفسها توقفت لتنتظر خبر علي.

أم علي جلست على الأرض، رأسها بين يديها، كل دمعة كانت صرخة في صمت الليل، وكل ثانية تمر كانت ثقيلة كالسنة بأكملها الرجال بدأوا يقسمون الطريق: أحدهم إلى النهر، آخر إلى الجسر

وفارس يقود البحث في الأزقة الضيقة، والكل ينادي على الطفل علي والجرو فستق ، النساء واصلن الطبخ، لكن أعينهن كانت تلتفت نحو الباب كل لحظة، تنتظر أي حركة.

فستق، الجرو الأبيض، كان يركض بين الزوايا، يشم الطريق، ينبح أحياناً، كأنه يحاول أن يقول : « هنا هناك شيئاً... علي هنا ».

بدأ البحث يصبح رحلة إستكشافية في كل زاوية من القرية ، الأزقة الترابية التي أعتاد الزوار والمقيمون عليها أصبحت الآن ساحة توتر وخوف الجسور الصغيرة على النهر، الأنهر الجافة، الحقول، الأشجار المتفرقة، كل شيء أصبح محتملًا لوجود علي.

فارس الابن الاكبر للقاضي وأعمام علي كانوا يبحثون تحت كل حجر بين كل عشب، على أطراف البيوت المهجورة، وأحياناً كانوا ينظرون في البيوت الفارغة، يتوقعون أي أثر للطفل أو للجرو.

الزوار الذين مرّوا في الصباح لاحظوا القلق، بعضهم توقف وسأل بعضهم ساعد في البحث، وكأن القلق أصبح شيئًا جماعيًا يربط الجميع ومع مرور ساعات النهار، أصبح البيت أكثر هدوءاً من أي وقت مضى.

أم علي لم تغادر مكانها، كل لحظة كانت تحسب ثانية على أمل رؤية إبنها ، الرجال تعبوا، لكن لم يفقدوا الأمل، وفستق الجرو الأبيض ظل يركض في كل مكان، يبحث عن أثر صغير، أي أثر كانت الأشجار تهتز بفعل الرياح، والأصوات البعيدة كانت تبدو أكبر مما هي عليه.

الأطفال في البيت جلسوا صامتين، يعلمون أن شيئاً خطيراً قد حدث، لكنهم لم يعرفوا كيف يواجهون الخوف ، حين أقترب الغروب بدأ أحد الزوار يصرخ : « هناك طفل قرب باب بغداد ».

القلب توقف لحظة ، ثم هرع الجميع نحو الصوت ورأوا علي وفستق يسيران ببطء، كأنهما عادا من عالم آخر ، الدموع أمتزجت بالضحك، القلق تحول إلى فرح.

أم علي ركضت، عانقت إبنها بكل قوة، وشعرت أن العالم توقف للحظة واحدة ، البيت عاد ينبض بالحياة، كل شيء عاد إلى مكانه، لكن القلوب تغيرت، تعلمت حجم الحب والصبر والأمل.

علي وفستق جلسا قرب والدتهما، متعبين لكن سعداء ، البيت أصبح مكاناً مختلفاً، مدرسة للحذر، للحب، للخدمة للتعاون

الطرق، الأنهر، الجسور، الزوايا المهجورة... كلها صارت دروساً في الحياة، تعلم الطفل معنى المسؤولية والحرص.

القاضي جلس مع أولاده يحكي عن أهمية الخدمة والزائرين والخوف وكيفية تحويله إلى درس في الحب والصبر ، علي وفستق تعلموا أن الحب ليس مجرد كلمات، بل أفعال مسؤولية، ورعاية ، بعد تلك الليلة، أصبح البيت رمزاً أكبر من مجرد جدران ، كان مكاناً لتعليم الأطفال، ومكانًا للخدمة، ومأوى للزائرين، ورمزاً للرحمة.

فستق الجرو أصبح بطلاً صغيراً، وعلي كبر قليلاً في تلك اللحظة تعلم أن الحياة أكبر من عمره، وأن الحب والخوف جزء من نفس العالم.

كل عام، حين تأتي أيام الأربعين، يعود البيت خيمة نور، مدرسة كرم، محراب خدمة، وطريقًا آخر يمشي نحو الحسين« عليه السلام »، مع علي وفستق يراقبان الطريق، يحمون البيت والقلوب ومع مرور السنوات تعلم عليّ درساً آخر: أن الخدمة ليست فقط في العطاء الملموس بل في الانتباه، في الاستماع، في الصمت حين يحتاج الزائر إلى كلمة صامتة من القلب، وفي الإبتسامة حين يظن الإنسان أن الطريق يراه وحده.

كانت أعين عليّ تلتقط تلك التفاصيل، وتحفظها كما تحفظ الكتب صفحاتها، لتصبح جزءاً من روحه وذات يوم، بينما كان يوزع الماء على مجموعة من المشاة الذين جاءوا من بعيد، توقف عن الحركة قليلاً، ونظر إلى الأفق.

لم يكن يرى فقط طريقاً ممتداً، بل يرى وجوه آلاف الزائرين الذين مروا هنا قبل سنوات، يرى دموعهم، ضحكاتهم، وراحة قلوبهم شعر بأن الطريق نفسه يبتسم له، وكأن له شخصية وروحاً، وأن كل خطوة على هذا التراب ليست خطوة عابرة، بل رسالة تُكتب على قلبه قبل الأرض.

في الليل، حين يهدأ البيت، كان عليّ يجلس على عتبة الباب، ينظر إلى السماء، ويتخيل أن كل نجمة هي زائر آخر ، كان يسمع أصوات القدور، وهمسات النساء، وضحكات الأطفال، لكنه لم يكن يراها كأصوات متفرقة... بل كتناغم واحد، كقلب ينبض بالحياة والخدمة والحب ، ثم جاء اليوم الذي قرر فيه عليّ أن يسجل كل ما تعلمه ليس بالكلمات فقط، بل بأفعاله ، بدأ يساعد في ترتيب البيت قبل قدوم الزائرين، يراقب حاجاتهم، يعرف متى يحتاج الماء، ومتى يحتاج الراحة، ومتى يكفي مجرد وجود هادئ وكان يشعر

كل مرة، كما لو أن البيت يبتسم له، يشكر روحه الصغيرة التي كبرت مع كل خدمة وفي إحدى الليالي، بينما كانت الرياح تعصف، جاء زائر صغير يرتجف من البرد والخوف.

جلس عليّ بجانبه، أعطاه الماء ، ثم قال له : « لا تخف هذا الطريق يعلمك أكثر من أي كتاب، ويحتضنك كما يحتضن كل قلب صادق ».

شعر عليّ حينها بأن الخدمة الحقيقية لا تُقاس بالوقت أو الجهد بل بالحب الذي يُزرع في قلوب الآخرين، وبالطمأنينة التي يمنحها الإنسان لمن يحتاجها ومع مرور السنوات، صار عليّ يرى البيت وكأنه كائن حيّ يضحك ويبكي، يرحب ويودع، يأخذ ويعطي ويرى الطريق وكأنه صديق قديم، يعلم دروس الحياة الصعبة قبل أن تعلمه الكتب وكل عام، حين يأتي موسم الأربعين، يصبح البيت خيمة نور، طريق تعلم، مدرسة حياة، ومحراب حب وكل خطوة في الطريق، وكل قطرة ماء، وكل لحظة صمت، تتحول إلى درس خالد يُخلد في روح كل من مر من هنا، وخصوصاً في قلب عليّ، الذي صار يرى الخدمة كهوية، والحسين « عليه السلام »كقلب لا ينتهي.

مع مرور الأيام، صار عليّ لا يرى الزائرين مجرد أشخاص يمرّون على الطريق، بل كل واحد منهم قصة متكاملة، قلب ينبض، روح تبحث عن السلام، وعين تحمل دعاء صامتاً. كان يتذكر ذلك الرجل المسن الذي جاء من قرية بعيدة، وعيناه تلمعان بدموع مختلطة بالألم والأمل.

جلس عليّ بجانبه، وأعطاه الماء، وأثناء الجلوس، لم يتكلم أحدهما كثيراً ، لكن كل نظرة، كل إبتسامة خفيفة، كانت تقول ما يفوق الكلمات : « هذا الطريق، وهذا البيت، يعيد لنا الحياة ».

وفي يوم آخر، جاءت إمرأة تحمل طفلاً رضيعاً على صدرها، وقد كانت تعبت من السفر الطويل ، أستقبلتها النساء بحنان، وبدأ عليّ يراقب التفاعل : كيف يمسح الماء على وجه الطفل، وكيف تهمس الأم لطفلها، وكأنها تغني له صلاة صغيرة.

شعر عليّ حينها أن الخدمة ليست فقط في تقديم الطعام أو الماء بل في حضن يشع الأمان، في إبتسامة تمنح القوة، وفي صمت يحمل الطمأنينة وما زال عليّ يتذكر الشاب الذي جاء محملاً بالحزن، فقد أحب شخصاً ولم يستطع البقاء معه.

جلس عليّ بجانبه قرب المدخل، وبدأ يستمع ، لم يكن بحاجة لكلمات كثيرة، فقط وجود شخص يشارك صمته كان يكفي ومع مرور الوقت، رأى عليّ كيف بدأ الشاب يبتسم ببطء، وكيف بدأت خطوط الهم تتلاشى من وجهه.

علم حينها أن الطريق والبيت لا يقدمان الماء والطعام فقط، بل يقدمان فرصة للشفاء، وللقلب أن يتنفس ، أما الأطفال، فكانت لهم حكايات أخرى.

كانوا يركضون بين القدور وكأنهم جزء من الروح نفسها ، عليّ كان يضحك معهم، يتابع خطواتهم الصغيرة، يسمع أصوات ضحكاتهم التي تتردد في أرجاء البيت، ويكتشف أن البركة تتضاعف مع كل ابتسامة صغيرة، وأن كل طفل يمر من هنا يترك أثراً دائمًا في الجدران، في الهواء، وفي قلب عليّ نفسه وفي يوم خفيف الشمس جاء رجل متعب، يضع على ظهره أثقال العمر والعمل.

جلس عليّ بجانبه، وسأل الرجل عن رحلته ، بدأ الرجل يتحدث عن فقدان أحبائه، وعن صراعه مع الألم، وعن كيف أن الطريق هذا والبيت، أعطياه أملاً لم يكن يتوقعه...؟

عندها، شعر عليّ أن الخدمة ليست مجرد أفعال، بل حضور كامل مشاركة صادقة، واستعداد لتلقي كل قصص الآخرين كما هي بدون حكم، بدون أستعجال فقط حب صامت ومع كل زائر، كان عليّ يكتشف شيئاً جديدًا عن نفسه: عن الصبر، عن التواضع عن القوة التي تأتي من العطاء دون إنتظار مقابل، وعن السعادة الحقيقية التي لا توجد إلا حين تُعطى للآخرين.

كان الطريق والبيت يعلّمانه دروساً تُدرّس في أي مدرسة، دروساً عن الإنسانية، عن الإيمان، وعن معنى أن تكون جزءاً من قصة أكبر من نفسك وفي ليالٍ هادئة، بعد رحيل الزائرين، كان عليّ يجلس على عتبة الباب، ينظر إلى السماء، ويشعر بأن كل نفس دخل هذا البيت وكل خطوة على الطريق، صارت جزءاً من روحه.

كان يسمع أصوات القدور، وحنجرة النساء، وهمسات الرجال وضحكات الأطفال، وكأن البيت يروي له حكاية العالم كله : الألم الفرح، التعب، الخدمة، الحب، الإيمان وكل هذه الأصوات كانت تتحد لتصنع تناغماً روحانياً يملأ المكان بأسره، ويعلّم عليّ أن الحياة الحقيقية هي في هذه اللحظات الصغيرة، في كل قطرة ماء تُقدّم، في كل إبتسامة تُزرع، في كل دعاء يُقال صامتاً...وذات يوم، جاء زائر

من مدينة بعيدة، يحمل في قلبه وجعاً كبيراً لكنه لم يعرف كيف يُعبّر عنه ، جلس عليّ بجانبه، أعطاه الماء وأبتسم له أبتسامة صامتة بعد ساعات، شعر الزائر بأن قلبه أصبح أخف، وأن الطريق قد أعاد له شيئاً كان قد فقده منذ سنوات: الأمل في الإنسانية.

عندها، أدرك عليّ أن كل خطوة، كل حركة، كل فعل خدمة، هو أثر خالد، لا يُمحى بالزمن، بل يُترك محفوراً في قلب كل من يمر من هنا، وفي قلب هذا البيت نفسه وبين كل هذه اللحظات، بدأ عليّ يفهم درساً أكبر: أن البيت والطريق ليسا فقط مكانين، بل كيانات حية تتنفس، تشعر، وتعلم. كل جدار هنا يحمل ذكرى زائر، كل قطعة أرض تحمل أثر خطوة وكل قطرة ماء تحمل بركة والبيت، بهذا المعنى، ليس ملكاً لأهله فقط، ولا الطريق ملكاً للمشاة، بل لكل قلب صادق يمرّ، لكل روح تبحث عن السكينة لكل يد تريد أن تعطي بلا مقابل ومع نهاية كل موسم، حين تعود الأيام لتصبح هادئة، يجلس عليّ وحيدًا، يتأمل، ويشعر بأن كل شيء تعلمه أصبح جزءاً منه.

يعرف أن الخدمة ليست مجرد فعل عابر، بل هوية، وأن الحب الذي يُزرع في الطريق والبيت، يتضاعف ليصبح نوراً لا ينطفئ

يضيء قلوب كل من يمر هنا، ويترك أثرًا خالدًا في الروح، قبل أن يترك أثراً في التاريخ.

مرت السنوات، وكبر عليّ داخلياً قبل أن يكبر جسدياً ، لم تعد الخدمة مجرد توزيع ماء وطعام، بل أصبحت رؤية كاملة للعالم... كل خطوة على الطريق، كل قطرة عرق، كل دمعة تسبق ابتسامة، كانت تتحدث بلغة الروح.

صار يشعر بأن الطريق نفسه حي، يتنفس مع كل زائر، يسمع الهمسات والآهات، ويحتفظ بالقصص كما يحتفظ البحر بأسراره وفي ليلة صافية، بينما كان القمر يتأمل البيت من فوق، جلس عليّ على عتبة الباب، وأحاطه الصمت.

لم يكن صمتاً عادياً، بل صمتاً مليئًا بالمعاني: صمت الطريق صمت الزائرين، صمت القدور، صمت القلوب التي مرّت هنا. وفي هذا الصمت، شعر عليّ بشيء لم يشعر به من قبل : أن البيت والطريق والحسين« عليه السلام »، جميعهم جزء من كيان واحد كيان يتعلم منه كل إنسان كيف يكون إنساناً ، تذكر عليّ الرجل الذي فقد كل شيء في حياته، وجاء يبحث عن العزاء.

كان يجلس تحت المدخل، يسكب دموعه بصمت، ولم يكن بحاجة لأي كلمات.

عندها شعر عليّ أن الخدمة ليست مجرد فعل، بل حضور كامل مشاركة صادقة مع ألم الآخرين، أستقبال قلبهم كما هو، بدون تعديل، بدون حكم ، وتلك الليلة، أيقن أن الطريق لا يعطينا فقط ما نريد، بل ما يحتاجه قلبنا ليشفى ويكبر وفي يوم آخر، جاء طفل صغير من قرية بعيدة، لم يعرف معنى التعب، ولم يكن يعرف الحزن لكنه جاء مع والده الذي حمله على ظهره.

كان الطفل يضحك بلا توقف، ويدور حول القدور كأنه ريشة تطير في الريح ، جلس عليّ بجانبه، وأخذ يشرح له أن كل خطوة هنا لها معنى، كل قطرة ماء لها بركة، وكل ابتسامة صغيرة تزرع حبًا في القلوب ، الطفل استمع، وعيناه تتسعان بالدهشة وعليّ شعر لأول مرة أن الحكمة يمكن أن تأتي من قلب طفل، قبل أن تأتي من أي كتاب ومع مرور الوقت، بدأ عليّ يرى أن كل زائر يترك أثراً مختلفاً في البيت، كما يترك الريح أثرها على الرمل: بعضهم يترك إبتسامة بعضهم دمعة، وبعضهم صمتاً ممتلئاً بالمعنى ، وكل هذا الأثر يتجمع ليصنع روحاً أكبر من البيت نفسه، روحاً تتسع لكل من

يمر، روحًا لا يملكها أحد، ولا يسيطر عليها أحد، لكنها تتحدث بلغة الحسين« عليه السلام »، لغة الحب والعطاء والتواضع وذات مساء بينما كانت الرياح تعصف، جاء رجل مسن يحمل صورة صغيرة لشاب مات في الحرب ، جلس عليّ بجانبه، وعندما نظر في عينيه شعر بوزن كل السنوات، بكل الخسائر، بكل الألم لكن بعد قليل بدأ الرجل يبتسم، ودموعه تختلط بالفرح الصامت لأن الطريق والبيت قد أعادا له شيئًا كان يعتقد أنه فقده إلى الأبد: الأمل في الخير، في الإنسانية، في البركة التي تجعل الحياة تستحق العيش وفي تلك اللحظة، أدرك عليّ درساً أعمق من أي درس تعلمه : أن الخدمة ليست فعلاً عابراً، بل روح تتسرب إلى كل قلب صادق وتصنع من كل مكان، بيتاً، ومن كل طريق، مدرسة، ومن كل زائر درساً خالداً وأن الحسين« عليه السلام »، بهذه البركة العظيمة، لا يجذب القلوب فقط، بل يعلّمها كيف تنبض بالحياة...؟

كيف تمنح بلا إنتظار...؟

وكيف تشعر بالآخر قبل أن يشعر هو بنفسه ومع إقتراب نهاية الموسم...؟

جلس عليّ وحيداً على عتبة الباب، ينظر إلى السماء، ويستحضر كل من مر من هنا: دموعهم، ضحكاتهم صمتهم، وأملهم ، شعر بأن البيت والطريق أصبحا جزءاً منه، وأنه أصبح هو أيضاً جزءاً منهما، وأن كل خدمة صغيرة، كل إبتسامة، كل قطرة ماء صارت أثراً خالداً، لا يمحى بالزمن وفي تلك الليلة، أدرك أن الطريق والبيت والحسين« عليه السلام » ، جميعهم يكتبون التاريخ على الروح قبل أن يكتبوه على الورق وأن عليّ، الطفل الذي جاء صغيراً، صار اليوم يحمل في قلبه مدرسة كاملة، مدرسة الحب والخدمة والتواضع مدرسة الحياة نفسها ومنذ ذلك الحين، كل عام، حين يأتي موسم الأربعين، لا يعود البيت مجرد بيت، بل يصبح خيمة نور، ومحراب حب، وطريق معرفة، ومدرسة خدمة، وملاذ لكل قلب يبحث عن السلام وكل خطوة في الطريق، وكل إبتسامة في البيت، وكل دمعة صامتة تتحول إلى أثر خالد في روح عليّ، وفي روح كل من مرّ هنا ليظل البيت والطريق والحسين« عليه السلام » ، مدرسة لا تنتهي وخدمة لا تموت، وحباً لا يزول.

مرت الأيام والسنون، وصار عليّ يرى كل شيء بعين مختلفة ، لم يعد يرى الطريق مجرد تراب، ولا البيت مجرد جدران، بل صار كل شيء كياناً حيًا، يتنفس، يشعر، يتعلم، ويعلّم.

الطريق يحمل في كل خطوة ذكرى، وكل حجر على الأرض يحمل أثر قدمٍ مرت، وكل نسمة هواء تحمل دعاء صامتًا ، البيت أصبح قلباً نابضاً، غرفه وأروقته وجدرانه أصبحت صفحات مفتوحة للروح، لكل من يريد أن يقرأ، ولكل قلب صادق يريد أن يشعر كان علي يلاحظ الزائرين أكثر من أي وقت مضى ، لم يكن يراهم فقط عابرين، بل يراهم كحكايات مكتملة، كل واحد منهم يحمل عالماً بداخله: دموع، فرح، حزن، أمل ، خوف، شجاعة.

جاء رجل مسن يحمل عكازاً، وعيناه مليئتان بالأسى، جلس عليّ بجانبه وأمسك يده بصمت ، كان الرجل يشعر بأنه وجد من يفهم صمته، ومن يشارك صمته بحب صادق وعندما نهض الزائر، شعر عليّ وكأن جزءاً من روحه بقي في البيت، جزءًا من حبه للبشرية جزءاً من إيمانه بالخير الذي لا يموت وفي يوم آخر، جاءت إمرأة عجوز تحمل في حقيبتها صور أحفادها تبكي بصمت، وتبتسم

أيضًا ، جلست عليّ بجانبها، وسمع قصتها وكيف أن الطريق والبيت أعادا إليها شيئاً كان قد ضاع...؟

الطمأنينة القوة، والشعور بأنها ليست وحدها ، شعر عليّ حينها أن الخدمة ليست مجرد فعل عابر، بل هي إنفتاح كامل للقلب، هوية تُعاش في كل لحظة، تُعاش في كل دمعة، في كل إبتسامة، في كل قطرة ماء تُسكب على وجه العطشان.

الأطفال كانوا بالنسبة له عالماً آخر ، كان يراقب خطواتهم الصغيرة ضحكاتهم التي تتردد بين الجدران، فضولهم الذي يملأ المكان نوراً وبهجتهم التي تجعل البيت أكبر مما هو عليه ، تعلم منهم أن البركة لا تأتي من العمل الشاق فقط، بل من القلب الطاهر، من الحب الصافي، ومن القدرة على رؤية العالم بعين صافية، كما يراه الأطفال قبل أن تُعقده الحياة ومع كل زائر، كان عليّ يكتشف درساً جديداً أن الطريق لا يعطي فقط ما يحتاجه الإنسان، بل يعطي ما يحتاجه قلبه ليتعلم ليتطهر، ليكبر، ليحب أكثر، ليعطي أكثر وكل خطوة على التراب كانت كدعاء، وكل إبتسامة كانت كضياء، وكل دمعة كانت كغيث يروي الروح وذات ليلة، جلس عليّ وحده على عتبة الباب، ينظر إلى السماء شعر بأن النجوم تبتسم له، وكأنها زائرون

قادمون من أماكن بعيدة يحملون قصصاً لم تُروَ بعد، ودموعاً لم تُسقَ بعد، وقلوباً تبحث عن البيت، عن الطريق، عن الحب عندها فهم أن كل شيء في الحياة متصل : البيت، الطريق الحسين« عليه السلام » ، الزائرين، والخدمة وأن هذه الخدمة ليست مجرد واجب بل مدرسة للحياة ، مدرسة الروح مدرسة الحب وفي موسم آخر جاء زائر يحمل قلباً محطماً، بعد فقدانه كل شيء جلس عليّ بجانبه، أعطاه الماء، وجلس صامتًا يستمع ، وعندما نهض الزائر شعر عليّ بأن قلبه أصبح أخف، وأن الطريق والبيت قد أعادا له الأمل في الحياة، في الخير، في البركة التي تتجلى في أبسط الأمور: إبتسامة، كلمة طيبة، قطرة ماء، دعاء صامت.

كان عليّ يدرك شيئاً عميقاً جداً: أن البيت والطريق ليسا مكانين فقط، بل روح حية، تتعلم مع كل زائر، تنمو مع كل قلب صادق وتترك أثرًا خالدًا في كل من يمرّ ، أن الحسين « عليه السلام » يجذب القلوب ليس بالقوة، بل بالحب، بالهدوء، بالعطاء بلا مقابل، وبالقدرة على تحويل أي مكان، مهما كان صغيراً، إلى عالم كبير ومع نهاية كل موسم، حين تغيب الشمس ويهدأ البيت يجلس عليّ وحيداً يتأمل، ويشعر بأن كل دمعة سقطت، وكل

أبتسامة زُرعت وكل خطوة على الطريق، صارت جزءاً من كيانه كان يشعر بأن الخدمة لا تموت، وأن الأثر الحقيقي لا يُقاس بالزمان أو المكان، بل بالقلب، بالروح، وبالحب الذي يُزرع ويكبر وينمو بلا حدود وهكذا، أصبح البيت والطريق والحسين« عليه السلام » بالنسبة لعليّ، مدرسة لا تنتهي، ومحراباً للحب والخدمة، وملاذًا لكل قلب يبحث عن السلام ، ومصدرًا للبركة لكل من يريد أن يروي قلبه بالخير وكل سنة ، حين تأتي أيام الأربعين، يتحول البيت إلى خيمة نور، وطريق معرفة، ومدرسة حب، ومحفل روحاني، حيث كل قطرة ماء، وكل إبتسامة، وكل دعاء صامت، يتحول إلى أثر خالد لا يمحى من الزمن، بل يُخلّد في الروح قبل أن يُخلّد في التاريخ وهكذا أنهى البيت أيام خدمته لكن شيئاً واحداً لم ينتهِ: الأثر الذي تركه الطريق في قلب الطفل وفي قلب البيت...في هواء الغرف وفي فتحات السقف، وفي طبقات الجدران التي حفظت أنفاس العابرين.

حين غربت شمس آخر يوم، بدت دار القاضي وكأنها أصغر بقليل لكنها أكبر كثيراً صغيرة من الخارج، لأنها عادت بيتاً كبيرة من الداخل، لأنها صارت عالماً.

في تلك الليالي، لم يكن بيتاً على طريق المشاية فقط...كان وجه العراق حين يخدم، وكان قلب الناس حين تنذر وكان هيبة الطريق حين يلتقي بأهل البيت وكان مرآة لسماءٍ قررت أن تنزل إلى الأرض قليلاً أما علي فقد حمل معه درساً لا يموت: أن خدمة زوار الحسين « عليه السلام » ليست عملاً بل أثر يُكتب في الروح قبل أن يُكتب في التاريخ وهكذا، كل عام حين تأتي أيام الأربعين لا يعود البيت بيتاً...بل يعود خيمة نور ومدرسة كرم ومحراب خدمة وطريقاً آخر يمشي نحو الحسين « عليه السلام ».

يمّه... هذا الرجل لما شرب الماء بكى... لماذا...؟.

سأل عليّ وهو ما يزال طفلاً صغيراً، بريئاً، وعيناه تتسعان لكل جديد فابتسمت الأم، ووضعت يدها على كتفه الصغير، وقالت بصوت يمزج الحكمة بالحنان : « يا بُني... بعض الناس عطشهم مو عطش مي... عطش روح ».

ظل عليّ يتذكر هذه الكلمات طوال حياته، وكأنها بذرة صغيرة زرعتها أمه في قلبه، تنمو مع كل تجربة.

فهم منذ صغره أن الماء ليس مجرد شراب، وأن اليد التي تمد الماء لا تقدّم مجرد رطوبة، بل تمدّ رحمة، تمدّ حياة، تمدّ قلبًا كاملًا بالسكينة.

حين ينام البيت عادةً، يكون السكون سيداً مطلقاً، كأنه رداء ثقيل يغطي كل شيء ، لكن في أيام الأربعين، ينهض الليل من سباته، لا ينام، لا يُهزم، كقلب يخشى أن يفوته نبض ، كل شيء في البيت يتحرك بطريقة غريبة، وكأن له روحاً مستقلة تتفاعل مع الزائرين في الفناء الخارجي، حيث نام عليّ، كانت الظلال تتحرك مثل كائنات حيّة.

كل ظل يخفي قصة، كل حركة تحمل معنى. رجال ينهضون لأداء الصلاة، ونساء يجلسن قرب أطفالهن، يطمئنّهم، ويطمئنّون أنفسهن.

من شبع بالطعام يشكر، ومن أنهكته الخطوات يبكي ليرتاح، ومن فقد عزيزًا يجعل من الطريق عزاءً مفتوحًا، ومن نذر نذراً فجاء يوفيه حتى لو زحف على الأرض ، كل هذه المشاهد كانت تصنع في قلب الطفل كتاباً ضخماً، لا يقدر على قراءته أحد غيره.

هناك، فهم أن الإنسان حين يمشي لكربلاء لا يشبه نفسه حين يمشي لأي مكان آخر ، هناك شيء يتغير، شيء يشبه الطهارة التي تأتي بعد بكاء طويل، بعد صبر طويل، بعد أنتظار صامت.

مع أول خيوط الفجر، بدأ الضوء يتسلل من السماء، لكن البيت لم يكن بحاجة إلى ضوء الشمس ليضيء.

كان مضاءً بالفعل: أصوات النساء، طرق القدور، نفَس النار رائحة الهيل، وهسيس الخبز الذي يلتصق بجدار التنور... كلها موسيقى حقيقية، موسيقى لا تأتي من الأرض بل من القلب عليّ وقف عند باب السردَق، يتأمل الرجال وهم يشعلون النار الشرر يتطاير، فيراه نجوماً صغيرة ، الدخان يتصاعد، فيراه دعاء.

الرجل الذي يضع الحطب، يرى فيه عليّ أن كل جزء من حياته يُقدّم في خدمة زوار الحسين « عليه السلام »، عندها شعر علي أن الفجر الحقيقي ليس في السماء... الفجر الحقيقي يخرج من قلب الخادم، من يد تقدم الماء، من عرق على الجبهة، من دمعة صامتة على خد أحد الزائرين.

مع تزايد تدفق الزائرين، أصبح عليّ يقرأ قصصهم دون أن يسمعها: هذا الرجل يسير وحيدًا لأنه فقد ابنه العام الماضي، تلك المرأة تحمل دعاء بيت كامل، الشاب يمشي مبتسمًا رغم الألم في قدمه، العجوز يراقب الأطفال بحنان لأنه يذكّر بأحفاده الذين تركهم ليصل إلى الحسين « عليه السلام » كل ذلك جعله يتعلم ما لا تُدرّس في

المدارس : أن الإنسان يمكن أن يكون أقوى مما يظن، وأن الحسين « عليه السلام » يجذب القلوب جذبا لا تشبهه أي قوة في العالم.

طوال النهار، كان البيت يتحول إلى خلية نحل، لكن نحل هذه الخلية لم يجمع عسلاً، بل جمع بركة ، لم يكن هناك توقف، لا أستراحة طويلة ولا هدنة.

النساء يبدأن الطبخ قبل أن تنتهي الوجبة الأولى، والرجال يملؤون القدور بالماء قبل أن تشحّ الكؤوس ، وعليّ يتنقّل بينهم كعصفور صغير، نشيط، لا يكلّ .

كل هذا جعل البيت يبدو وكأنه يملك روحاً أكبر من أصحابه أقوى من طاقتهم، أوسع من مساحته، وأكثر تواضعاً من كل ما فيه.

المشّاية يمرّون أمام الدار، وكأن الطريق لا ينتهي، لكن الحقيقة أن الطريق هو الذي يأتي إلى البيت، لا البيت إلى الطريق ،كل شيء في البيت ليس ملكاً لأصحابه: القدور للزائرين، الماء للزائرين الفراش للزائرين، الأيام للزائرين، والقلوب كلها للحسين « عليه السلام ».

عليّ بدأ يكتشف شيئاً جديدًا كل يوم : للخطوات صوت يشبه الدعاء، للوجوه نور يشبه البسملة، الطريق ليس مجرد تراب...

الطريق ذاكرة حية، تحمل الأمل، الحزن، الحب، التضحية، كل شيء وفي آخر يوم من الخدمة، حين بدأ المد البشري يقل، جلس عليّ قرب باب السردَق ، يتأمل الطريق.

سأله أحد الرجال : « علي، لماذا اليوم تبكي...؟ ».

مسح الطفل عينيه وقال : ليس حزن...لكن عرفت الطريق...تعلّم عليّ أكثر مما أني تعلمت عليه ، ابتسم الرجل وقال : هذا بيتك يا علي...لكن الطريق هذا طريقك الثاني...منذ ذلك اليوم، لم يعد عليّ يرى البيت على أنه أربعة جدران ، صار مكاناً يتسع بقدر نية أهله، ويضيق بقدر الأنانية، ويكبر بقدر ما يخدم ، الطريق، ذلك الطريق الذي نام عنده وأستيقظ فيه، صار معلّمه الأكبر ، حين غربت شمس آخر يوم بدأ البيت صغيراً قليلًا من الخارج لكنه كبير جدًا من الداخل ، صغير لأنه عاد بيتاً كبير لأنه صار عالماً كاملًا .

كان البيت في تلك الليالي ليس مجرد مكان على طريق المشاية، بل كان وطنًا صغيرًا على الأرض، يضم بين جدرانه حرارة العراق كله ويحتوي على قلب الناس حين تنذر، وهيبة الطريق حين يلتقي بأهل البيت، ومرآة لسماء قررت أن تنزل إلى الأرض قليلاً لتلمس وجوه الذين يأتون من كل فجّ عميق ، كل زاوية فيه كانت تحكي قصة

صمت وفداء، وكل ركن يلمع بنور لا يراه إلا من يأتي بقلب متيقظ، يبحث عن المعنى قبل أن يبحث عن الراحة.

أما عليّ فقد حمل معه درساً لا يموت، درسًا يتعدى حدود الزمان والمكان : أن خدمة زوار الحسين « عليه السلام » ليست عملاً يُقاس بالساعات أو الجهد، بل هي رسالة تُزرع في الروح قبل أن تُسجل في التاريخ فكل خطوة يخطوها على الطريق، كل كأس ماء يقدمه للغريب العطشان، كل وجبة توضع على الطاولة البسيطة كل ابتسامة تُبادل الضيف في عتمة الليل، كلها أصوات خفية تشق طريقها نحو قلوب البشر، تصنع حياة جديدة، وتترك أثرًا يتردد في الأفق كما يتردد صدى المطر على التلال.

كانت الليالي طويلة، لكنها مليئة بالحكايات ، يُسمع صدى خُطى المشاية على الطريق المرصوف بالحصى، ويُسمع همس الريح بين أغصان الأشجار، فينساب الصوت مع ألسنة النار الصغيرة في فناء البيت، كأن الكون كله يشارك في هذا الاحتفاء الصامت ، هناك تعلم عليّ أن كل عمل صغير، كل حركة بسيطة، يمكن أن تكون جسراً بين الإنسان والله، بين الإنسان والآخر، بين الحياة والموت بين الأرض والسماء وفي كل مرة يُعد فيها الطعام، أو يُسكب الماء

أو تُمد يد العون، كان البيت يتحول إلى فضاء أوسع من حجمه كأن جدرانه تتسع لاستيعاب كل الأرواح التي تأتي لتشعر بالدفء لتستمد الأمل لتتعلم أن الحياة، مهما كانت صعبة، يمكن أن تُعاش بالحب والرحمة كانت الضحكات تتعالى أحيانًا، وتختلط بدموع الامتنان أحيانًا أخرى، وكانت الكلمات قليلة، لكنها ثقيلة بالمعنى تحمل أكثر مما تحمله الكتب أو المقالات وعليّ، الذي كان يظن أن الخدمة مجرد تقديم المأكل والمشرب اكتشف أن الحسين ليس بحاجة إلى أشياء مادية فقط، بل إلى القلوب النقية، إلى الأرواح التي تتنفس الرحمة إلى الأيادي التي تمسح الألم قبل أن يصرخ الناس فيه وإلى العيون التي ترى البؤس قبل أن يراه الآخرون...هنا، في هذا البيت المتواضع تعلم معنى الفداء الحقيقي، معنى العطاء الذي لا يعرف التعب ومعنى الصبر الذي يتحول إلى نور، والجهد الذي يصبح ذكرى خالدة في قلب كل من مرّ بالبيت ومع كل فجر، كان البيت يستقبل النور كما لو أنه صديق قديم يدفئ الأرواح المتعبة ويغسل الذكريات بالسكينة ، كان عليّ يقف عند الباب أحيانًا ينظر إلى الطريق الممتد أمامه ويرى المشاية الذين يحملون معهم آمالهم الصغيرة، وأحلامهم الكبيرة، ويعلم أن كل خطوة منهم نحو

البيت تحمل معها وعدًا بأن الخير لا يموت وأن الحب لا ينتهي وأن روح الحسين « عليه السلام » ، كما كان قد وعد، تبقى حيّة في كل قلب يُخلص في خدمته.

في تلك الليالي، صار البيت أكثر من بيت، صار مدرسة للرحمة ملاذًا للنور، ومكانًا تُصاغ فيه القلوب كما يُصاغ الحديد في النار قلوب تتعلم كيف تُحب بلا شروط، كيف تعطي بلا مقابل، كيف تصبر بلا شكوى...؟

صار عليّ يعرف، بلا أي ريبة، أن كل ما يفعله مهما بدا بسيطًا أو عابرًا، هو جزء من لوحة أكبر، لوحة تُكتب فيها الحياة نفسها لوحة تُحكى للأجيال القادمة عن معنى الإيمان الحقيقي، عن أثر الخدمة على الروح قبل التاريخ، وعن أن كل شيء، مهما بدا صغيرًا، قادر على إشعال نور لا ينطفئ أبدًا.

خِدمة الزائرين

قلوبٌ تنبضُ عطاءً

كانت عيون عليّ تلتقط تلك التفاصيل، وتحفظها كما تحفظ الكتب صفحاتها، لتصبح جزءاً من روحه وذات يوم، بينما كان يوزع الماء على مجموعة من المشاة الذين جاءوا من بعيد، توقف عن الحركة قليلاً، ونظر إلى الأفق ، لم يكن يرى فقط طريقاً ممتداً، بل يرى وجوه آلاف الزائرين الذين مروا هنا قبل سنوات، يرى دموعهم ضحكاتهم، وراحة قلوبهم.

شعر بأن الطريق نفسه يبتسم له، وكأن له شخصية وروحاً، وأن كل خطوة على هذا التراب ليست خطوة عابرة، بل رسالة تُكتب على قلبه قبل الأرض وفي الليل، حين يهدأ البيت، كان عليّ يجلس على عتبة الباب، ينظر إلى السماء، ويتخيل أن كل نجمة هي زائر آخر كان يسمع أصوات القدور، وهمسات النساء، وضحكات الأطفال، لكنه لم يكن يراها كأصوات متفرقة... بل كتناغم واحد كقلب ينبض بالحياة والخدمة والحب ثم جاء اليوم الذي قرر فيه

عليّ أن يسجل كل ما تعلمه ليس بالكلمات فقط، بل بأفعاله بدأ يساعد في ترتيب البيت قبل قدوم الزائرين، يراقب حاجاتهم يعرف متى يحتاج الماء، ومتى يحتاج الراحة، ومتى يكفي مجرد وجود هادئ وكان يشعر كل مرة، كما لو أن البيت يبتسم له، يشكر روحه الصغيرة التي كبرت مع كل خدمة وفي إحدى الليالي، بينما كانت الرياح تعصف، جاء زائر صغير يرتجف من البرد والخوف.

جلس عليّ بجانبه، أعطاه الماء، دفأه بحضنه، ثم قال له : « لا تخف هذا الطريق يعلمك أكثر من أي كتاب، ويحتضنك كما يحتضن كل قلب صادق ».

شعر عليّ حينها بأن الخدمة الحقيقية لا تُقاس بالوقت أو الجهد بل بالحب الذي يُزرع في قلوب الآخرين، وبالطمأنينة التي يمنحها الإنسان لمن يحتاجها ومع مرور السنوات، صار عليّ يرى البيت وكأنه كائن حيّ يضحك ويبكي، يرحب ويودع، يأخذ ويعطي ويرى الطريق وكأنه صديق قديم، يعلم دروس الحياة الصعبة قبل أن تعلمه الكتب وكل عام، حين يأتي موسم الأربعين، يصبح البيت خيمة نور، طريق تعلم، مدرسة حياة، ومحراب حب وكل خطوة في الطريق، وكل قطرة ماء، وكل لحظة صمت، تتحول إلى درس خالد

يُخلد في روح كل من مر من هنا، وخصوصاً في قلب عليّ، الذي صار يرى الخدمة كهوية، والحسين كقلب لا ينتهي ، مع مرور الأيام، صار عليّ لا يرى الزائرين مجرد أشخاص يمرّون على الطريق بل كل واحد منهم قصة متكاملة، قلب ينبض روح تبحث عن السلام، وعين تحمل دعاء صامتًا ، وكان يتذكر ذلك الرجل المسن الذي جاء من قرية بعيدة، وعيناه تلمعان بدموع مختلطة بالألم والأمل.

جلس عليّ بجانبه، وأعطاه الماء، وأثناء الجلوس، لم يتكلم أحدهما كثيراً لكن كل نظرة، كل إبتسامة خفيفة، كانت تقول ما يفوق الكلمات : « هذا الطريق، وهذا البيت، يعيد لنا الحياة » وفي يوم آخر ، جاءت إمرأة تحمل طفلاً رضيعاً على صدرها، وقد كانت تعبت من السفر الطويل ، أستقبلتها النساء بحنان، وبدأ عليّ يراقب التفاعل: كيف يمسح الماء على وجه الطفل، وكيف تهمس الأم لطفلها، وكأنها تغني له صلاة صغيرة...؟

شعر عليّ حينها أن الخدمة ليست فقط في تقديم الطعام أو الماء بل في حضن يشع الأمان، في ابتسامة تمنح القوة، وفي صمت يحمل

الطمأنينة وما زال عليّ يتذكر الشاب الذي جاء محملاً بالحزن، فقد أحب شخصًا ولم يستطع البقاء معه.

جلس عليّ بجانبه قرب المدخل، وبدأ يستمع ، لم يكن بحاجة لكلمات كثيرة، فقط وجود شخص يشارك صمته كان يكفي ومع مرور الوقت، رأى عليّ كيف بدأ الشاب يبتسم ببطء، وكيف بدأت خطوط الهم تتلاشى من وجهه.

علم حينها أن الطريق والبيت لا يقدمان الماء والطعام فقط، بل يقدمان فرصة للشفاء، وللقلب أن يتنفس ، أما الأطفال، فكانت لهم حكايات أخرى ،كانوا يركضون بين القدور وكأنهم جزء من الروح نفسها.

عليّ كان يضحك معهم، يتابع خطواتهم الصغيرة، يسمع أصوات ضحكاتهم التي تتردد في أرجاء البيت، ويكتشف أن البركة تتضاعف مع كل إبتسامة صغيرة، وأن كل طفل يمر من هنا يترك أثرًا دائمًا في الجدران، في الهواء، وفي قلب عليّ نفسه وفي يوم خفيف الشمس، جاء رجل متعب، يضع على ظهره أثقال العمر والعمل جلس عليّ بجانبه، وسأل الرجل عن رحلته.

بدأ الرجل يتحدث عن فقدان أحبائه، وعن صراعه مع الألم، وعن كيف أن الطريق هذا، والبيت، أعطياه أملًا لم يكن يتوقعه...؟

عندها، شعر عليّ أن الخدمة ليست مجرد أفعال، بل حضور كامل مشاركة صادقة، واستعداد لتلقي كل قصص الآخرين كما هي بدون حكم، بدون استعجال، فقط حب صامت ومع كل زائر كان عليّ يكتشف شيئاً جديداً عن نفسه : عن الصبر، عن التواضع، عن القوة التي تأتي من العطاء دون إنتظار مقابل، وعن السعادة الحقيقية التي لا توجد إلاّ حين تُعطى للآخرين.

كان الطريق والبيت يعلّمانه دروسًا لم تُدرّس في أي مدرسة، دروسًا عن الإنسانية، عن الإيمان، وعن معنى أن تكون جزءاً من قصة أكبر من نفسك وفي ليالٍ هادئة، بعد رحيل الزائرين، كان عليّ يجلس على عتبة الباب، ينظر إلى السماء، ويشعر بأن كل نفس دخل هذا البيت وكل خطوة على الطريق، صارت جزءاً من روحه كان يسمع أصوات القدور، وحنجرة النساء، وهمسات الرجال وضحكات الأطفال، وكأن البيت يروي له حكاية العالم كله : الألم الفرح، التعب، الخدمة، الحب، الإيمان. وكل هذه الأصوات كانت تتحد لتصنع تناغمًا روحانيًا يملأ المكان بأسره، ويعلّم عليّ أن الحياة

الحقيقية هي في هذه اللحظات الصغيرة، في كل قطرة ماء تُقدّم، في كل ابتسامة تُزرع، في كل دعاء يُقال صامتًا وذات يوم، جاء زائر من مدينة بعيدة، يحمل في قلبه وجعًا كبيرًا لكنه لم يعرف كيف يُعبّر عنه...؟

جلس عليّ بجانبه، أعطاه الماء وأبتسم له ابتسامة صامتة بعد ساعات، شعر الزائر بأن قلبه أصبح أخف، وأن الطريق قد أعاد له شيئاً كان قد فقده منذ سنوات : الأمل في الإنسانية ، عندها أدرك عليّ أن كل خطوة، كل حركة كل فعل خدمة، هو أثر خالد لا يُمحى بالزمن، بل يُترك محفورًا في قلب كل من يمر من هنا، وفي قلب هذا البيت نفسه وبين كل هذه اللحظات، بدأ عليّ يفهم درساً أكبر : أن البيت والطريق ليسا فقط مكانين، بل كيانات حية تتنفس، تشعر، وتعلم ، كل جدار هنا يحمل ذكرى زائر، كل قطعة أرض تحمل أثر خطوة وكل قطرة ماء تحمل بركة والبيت، بهذا المعنى ليس ملكًا لأهله فقط، ولا الطريق ملكًا للمشاة، بل لكل قلب صادق يمرّ، لكل روح تبحث عن السكينة لكل يد تريد أن تعطي بلا مقابل ومع نهاية كل موسم، حين تعود الأيام لتصبح هادئة يجلس عليّ وحيدًا، يتأمل، ويشعر بأن كل شيء تعلمه أصبح جزءًا

منه ، يعرف أن الخدمة ليست مجرد فعل عابر، بل هوية، وأن الحب الذي يُزرع في الطريق والبيت، يتضاعف ليصبح نورًا لا ينطفئ يضيء قلوب كل من يمر هنا، ويترك أثرًا خالدًا في الروح، قبل أن يترك أثرًا في التاريخ.

مرت السنوات، وكبر عليّ داخلياً قبل أن يكبر جسدياً...لم تعد الخدمة مجرد توزيع ماء وطعام، بل أصبحت رؤية كاملة للعالم : كل خطوة على الطريق، كل قطرة عرق، كل دمعة تسبق ابتسامة كانت تتحدث بلغة الروح ، صار يشعر بأن الطريق نفسه حي يتنفس مع كل زائر، يسمع الهمسات والآهات، ويحتفظ بالقصص كما يحتفظ البحر بأسراره وفي ليلة صافية، بينما كان القمر يتأمل البيت من فوق، جلس عليّ على عتبة الباب، وأحاطه الصمت ولم يكن صمتًا عاديًا، بل صمتًا مليئًا بالمعاني : صمت الطريق، صمت الزائرين صمت القدور صمت القلوب التي مرّت هنا ، وفي هذا الصمت شعر عليّ بشيء لم يشعر به من قبل : أن البيت والطريق والحسين « عليه السلام » جميعهم جزء من كيان واحد، كيان يتعلم منه كل إنسان كيف يكون إنساناً.

تذكر عليّ الرجل الذي فقد كل شيء في حياته، وجاء يبحث عن العزاء ، كان يجلس تحت المدخل، يسكب دموعه بصمت، ولم يكن بحاجة لأي كلمات.

عندها شعر عليّ أن الخدمة ليست مجرد فعل، بل حضور كامل مشاركة صادقة مع ألم الآخرين، أستقبال قلبهم كما هو، بدون تعديل، بدون حكم وتلك الليلة، أيقن أن الطريق لا يعطينا فقط ما نريد، بل ما يحتاجه قلبنا ليشفى ويكبر وفي يوم آخر، جاء طفل صغير من قرية بعيدة، لم يعرف معنى التعب، ولم يكن يعرف الحزن لكنه جاء مع والده الذي حمله على ظهره.

كان علي يضحك بلا توقف، ويدور حول القدور كأنه ريشة تطير في الريح ، جلس عليّ بجانبه، وأخذ يشرح له أن كل خطوة هنا لها معنى، كل قطرة ماء لها بركة، وكل إبتسامة صغيرة تزرع حباً في القلوب.

علي أستمع، وعيناه تتسعان بالدهشة ، وعليّ شعر لأول مرة أن الحكمة يمكن أن تأتي من قلب طفل، قبل أن تأتي من أي كتاب ومع مرور الوقت، بدأ عليّ يرى أن كل زائر يترك أثراً مختلفاً في البيت، كما يترك الريح أثرها على الرمل : بعضهم يترك ابتسامة

بعضهم دمعة، وبعضهم صمتا ممتلئ بالمعنى وكل هذا الأثر يتجمع ليصنع روحاً أكبر من البيت نفسه، روحًا تتسع لكل من يمر، روحاً لا يملكها أحد، ولا يسيطر عليها أحد لكنها تتحدث بلغة الحسين « عليه السلام » ، لغة الحب والعطاء والتواضع.

وذات مساء، بينما كانت الرياح تعصف، جاء رجل مسن يحمل صورة صغيرة لشاب مات في الحرب وجلس عليّ بجانبه، وعندما نظر في عينيه، شعر بوزن كل السنوات، بكل الخسائر، بكل الألم لكن بعد قليل، بدأ الرجل يبتسم، ودموعه تختلط بالفرح الصامت لأن الطريق والبيت قد أعادا له شيئاً كان يعتقد أنه فقده إلى الأبد: الأمل في الخير، في الإنسانية، في البركة التي تجعل الحياة تستحق العيش وفي تلك اللحظة، أدرك عليّ درساً أعمق من أي درس تعلمه : أن الخدمة ليست فعلاً عابراً، بل هي روح تتسرب إلى كل قلب صادق، وتصنع من كل مكان، بيتاً، ومن كل طريق، مدرسة ومن كل زائر، درساً خالداً ، أن الحسين « عليه السلام » ، بهذه البركة العظيمة، لا يجذب القلوب فقط، بل يعلّمها كيف تنبض بالحياة كيف تمنح بلا إنتظار...؟

وكيف تشعر بالآخر قبل أن يشعر هو بنفسه...؟

ومع إقتراب نهاية الموسم، جلس علي وحيداً على عتبة الباب، ينظر إلى السماء، ويستحضر كل من مر من هنا : دموعهم ضحكاتهم صمتهم، وأملهم ، شعر بأن البيت والطريق أصبحا جزءاً منه، وأنه أصبح هو أيضاً جزءاً منهما، وأن كل خدمة صغيرة، كل إبتسامة كل قطرة ماء، صارت أثراً خالداً، لا يمحيه الزمن وفي تلك الليلة أدرك أن الطريق والبيت والحسين « عليه السلام » جميعهم يكتبون التاريخ على الروح قبل أن يكتبوه على الورق ، وأن عليّ الطفل الذي جاء صغيراً، صار اليوم يحمل في قلبه مدرسة كاملة مدرسة الحب والخدمة والتواضع، مدرسة الحياة نفسها ومنذ ذلك الحين كل عام، حين يأتي موسم الأربعين، لا يعود البيت مجرد بيت، بل يصبح خيمة نور، ومحراب حب، وطريق معرفة، ومدرسة خدمة وملاذ لكل قلب يبحث عن السلام وكل خطوة في الطريق وكل ابتسامة في البيت، وكل دمعة صامتة تتحول إلى أثر خالد في روح عليّ، وفي روح كل من مرّ هنا، ليظل البيت والطريق والحسين « عليه السلام »مدرسة لا تنتهي، وخدمة لا تموت، وحباً لا يزول مرت الأيام والسنون، وصار عليّ يرى كل شيء بعين مختلفة ولم يعد

يرى الطريق مجرد تراب، ولا البيت مجرد جدران، بل صار كل شيء كياناً حياً، يتنفس، يشعر، يتعلم، ويعلّم.

الطريق يحمل في كل خطوة ذكرى، وكل حجر على الأرض يحمل أثر قدمٍ مرت، وكل نسمة هواء تحمل دعاءاً صامتاً.

البيت أصبح قلباً نابضاً، غرفه وأروقته وجدرانه أصبحت صفحات مفتوحة للروح، لكل من يريد أن يقرأ، ولكل قلب صادق يريد أن يشعر.

كان عليّ يلاحظ الزائرين أكثر من أي وقت مضى ولم يكن يراهم فقط عابرين، بل يراهم كحكايات مكتملة، كل واحد منهم يحمل عالماً بداخله : دموع، فرح، حزن، أمل، خوف شجاعة جاء رجل مسن يحمل عكازاً، وعيناه مليئتان بالأسى جلس عليّ بجانبه وأمسك يده بصمت.

كان الرجل يشعر بأنه وجد من يفهم صمته، ومن يشارك صمته بحب صادق وعندما نهض الزائر، شعر عليّ وكأن جزءاً من روحه بقي في البيت، جزءاً من حبه للبشرية، جزءاً من إيمانه بالخير الذي لا يموت ، وفي يوم آخر، جاءت إمرأة عجوز تحمل في حقيبتها صور أحفادها تبكي بصمت، وتبتسم أيضاً جلس عليّ بجانبها

وسمع قصتها وكيف أن الطريق والبيت أعادا إليها شيئاً كان قد ضاع الطمأنينة القوة، والشعور بأنها ليست وحدها.

شعر عليّ حينها أن الخدمة ليست مجرد فعل عابر، بل هي إنفتاح كامل للقلب، هوية تُعاش في كل لحظة، تُعاش في كل دمعة، في كل إبتسامة، في كل قطرة ماء تُسكب على وجه العطشان.

الأطفال كانوا بالنسبة له عالماً آخر ، كان يراقب خطواتهم الصغيرة ضحكاتهم التي تتردد بين الجدران، فضولهم الذي يملأ المكان نوراً وبهجتهم التي تجعل البيت أكبر مما هو عليه.

تعلم منهم أن البركة لا تأتي من العمل الشاق فقط، بل من القلب الطاهر، من الحب الصافي، ومن القدرة على رؤية العالم بعين صافية، كما يراه الأطفال قبل أن تُعقده الحياة ومع كل زائر، كان عليّ يكتشف درساً جديداً : أن الطريق لا يعطي فقط ما يحتاجه الإنسان، بل يعطي ما يحتاجه قلبه ليتعلم ليتطهر، ليكبر، ليحب أكثر، ليعطي أكثر ، وكل خطوة على التراب كانت كدعاء، وكل ابتسامة كانت كضياء، وكل دمعة كانت كغيث يروي الروح وذات ليلة، جلس عليّ وحده على عتبة الباب، ينظر إلى السماء ، شعر بأن النجوم تبتسم له، وكأنها زائرون قادمون من أماكن بعيدة

يحملون قصصًا لم تُروَ بعد، ودموعاً لم تُسقَ بعد، وقلوباً تبحث عن البيت، عن الطريق، عن الحب ، عندها فهم أن كل شيء في الحياة متصل: البيت، الطريق، الحسين، الزائرين، والخدمة ، وأن هذه الخدمة ليست مجرد واجب، بل مدرسة للحياة، مدرسة الروح مدرسة الحب وفي موسم آخر، جاء زائر يحمل قلبًا محطماً، بعد فقدانه كل شيء ، جلس عليّ بجانبه، أعطاه الماء، وجلس صامتاً يستمع. وعندما نهض الزائر، شعر عليّ بأن قلبه أصبح أخف، وأن الطريق والبيت قد أعادا له الأمل في الحياة، في الخير، في البركة التي تتجلى في أبسط الأمور : ابتسامة، كلمة طيبة، قطرة ماء، دعاء صامت.

كان عليّ يدرك شيئًا عميقاً جداً : أن البيت والطريق ليسا مكانين فقط، بل روح حية، تتعلم مع كل زائر، تنمو مع كل قلب صادق وتترك أثراً خالداً في كل من يمرّ ، أن الحسين « عليه السلام » يجذب القلوب ليس بالقوة، بل بالحب، بالهدوء، بالعطاء بلا مقابل، وبالقدرة على تحويل أي مكان، مهما كان صغيرًا، إلى عالم كبير ، ومع نهاية كل موسم، حين تغيب الشمس ويهدأ البيت يجلس عليّ وحيداً يتأمل ويشعر بأن كل دمعة سقطت، وكل

إبتسامة زُرعت وكل خطوة على الطريق، صارت جزءاً من كيانه كان يشعر بأن الخدمة لا تموت وأن الأثر الحقيقي لا يُقاس بالزمان أو المكان، بل بالقلب، بالروح وبالحب الذي يُزرع ويكبر وينمو بلا حدود وهكذا، لم يعد البيت مجرد جدران تؤوي الجسد، ولا سقفاً يظلّل الرؤوس من حرّ الصيف وبرد الشتاء، بل صار كياناً حيّاً نابضاً بالمعنى، تتردد في زواياه أنفاس الخدمة، وتتشابك في أركانه خيوط المحبة الصادقة ، صار البيت، بالنسبة الى عليّ، كتاباً مفتوحاً على الدروس، ومدرسة لا تُغلق أبوابها، يتعلم فيها كيف يكون العطاء بلا منّ، وكيف يكون الحضور في خدمة الآخرين شرفاً لا واجباً ثقيلاً.

كان يرى في كل زاوية حكاية، وفي كل بساط ممدود ذكرى زائرٍ مرّ من هنا، حمل معه تعبه وأمانيه، وترك خلفه دعوةً صادقة ترفرف كالعطر في الهواء وكان الطريق الممتد أمام الدار، ذاك الطريق الذي يسير عليه العاشقون في أيام الأربعين، يتحول في عينيه إلى نهرٍ من القلوب، يمضي باتجاه قبلة الأرواح، نحو مدينة الحسين « عليه السلام » نحو كربلاء التي تختصر في اسمها معنى التضحية والوفاء.

لم يكن عليّ يرى في خدمة الزائرين عملاً عابراً، بل كان يراها امتداداً لقيمٍ تعلّمها من سيرة الإمام الحسين « عليه السلام » ؛ قيم الصبر، والإيثار، والثبات على الحق مهما اشتدت العواصف كان يشعر أن كل قدح ماء يقدّمه، وكل لقمة خبز يضعها بين يدي زائرٍ متعب، هي مشاركة صامتة في ملحمة العطاء التي بدأت يوم وقف الحسين « عليه السلام » في كربلاء، رافعاً راية الكرامة في وجه الظلم ومع اقتراب أيام الأربعين، كان البيت يتبدّل كما تتبدّل الأرض حين يزورها الربيع تتسع القلوب قبل أن تتسع الغرف، ويعلو صوت التهيئة قبل أن يُرفع السقف بالخيام ، تتعانق الأيدي، كباراً وصغاراً رجالاً ونساءً كلٌّ يحمل في قلبه نية خالصة أن يكون جزءاً من هذا النور الممتد من الماضي إلى الحاضر.

كانت أمه تقول له : « الخدمة يا ولدي ليست طعاماً نقدّمه، بل روحاً نزرعها » فيبتسم، ويشعر أن العبارة تكبر في داخله كلما رأى التعب يذوب من وجوه الزائرين حين يجدون موطئ راحة، أو جرعة ماء باردة، أو كلمة طيبة تخفف عنهم عناء الطريق وفي ليالي الأربعين، حين يهدأ الضجيج قليلاً، ويغفو بعض الزائرين على أرصفة التعب المقدّس، كان عليّ يقف على عتبة الدار، ينظر إلى

الطريق الممتد كخيط نور في الظلام ، يرى المشاة كأنهم نجوم تسير على الأرض، وكل نجمة تحمل حكاية ألمٍ وأمل، دمعةٍ وابتسامة، نذرٍ ودعاء وكان يشعر أن البيت لم يعد بيتاً، بل صار خيمة نور، ومحراباً مفتوحاً للسماء.

هناك، في ذلك الفضاء الروحي، كان يدرك أن السلام لا يُشترى بل يُبنى، لبنةً لبنة، بفعل الخير ، كان يرى أن البركة ليست معجزةً تهبط فجأة، بل ثمرة نيةٍ صادقة وعملٍ متواصل وكان يؤمن أن أثر هذه الأيام لا ينتهي بانتهاء الموسم، بل يبقى في الأرواح، كوشمٍ من نور، يرافق الإنسان في أيامه العادية، يذكّره بأن للحياة معنى أعمق من الركض وراء المصالح، وأن في العطاء حياةً أخرى، أصفى وأبقى.

كل قطرة ماء كانت تتحول في نظره إلى رسالة رحمة، وكل ابتسامة تُرسم على وجه زائرٍ منهك كانت شهادة بأن الحب أقوى من التعب وحتى الدعاء الصامت، ذاك الذي لا يسمعه أحد، كان يراه يرتفع كحمامة بيضاء، تحلّق فوق الرؤوس، وتعود بسلامٍ يغمر القلوب وكان عليّ يتأمل في معنى الأربعين، في سرّ هذا الزحف الإنساني الذي لا يشبه أي مشهد آخر في الدنيا ، يرى فيه مدرسةً في الصبر ودرساً في المساواة، حيث يسير الغني والفقير جنباً إلى

جنب، لا يفرّقهم سوى نياتهم الطيبة ، يرى فيه تذكيراً بأن القيم التي استشهد لأجلها الحسين ما زالت حيّة، تنبض في قلوب الملايين وتجدّد نفسها كل عام، كأنها وعدٌ إلهي بأن النور لا يُطفأ وحين تنتهي الأيام، وتُطوى الخيام، ويعود الطريق إلى هدوئه، يبقى البيت مشبعًا برائحة الخدمة، وبصدى الخطوات التي مرّت، كأنه احتفظ بذاكرة كل من وطئت أقدامهم أرضه ، فكل زاوية فيه، وكل جدار وكل حبة تراب على الساحة، يحمل سرّ لحظة، وهمسة دعاء وضحكة طفلة، ونظرة امتنان، وحتى دمعة صامتة لم يسمعها أحد إلا السماء ، هنا، في هذا البيت، تتلاقى الأرواح قبل الأجساد وتتشابك القلوب كما تتشابك الأغصان في بستان خصيب، فتولد منها قوة خفية، لا تُرى بالعين، ولا تُحس باللمس، لكنها تُشرق في القلب كنور شمس لا يغيب.

أما عليّ، فقد عاد من الطريق وهو يملأ صدره صمتًا عميقًا، صمتًا ليس فراغًا بل حضورًا مُعاشًا، يختلط فيه الشعور بالامتنان والتواضع، ويدرك أن كل خطوة قام بها، وكل جهد بذله، لم يكن عبثًا ، كان جزءًا من رحلة أكبر، رحلة الحياة نفسها، حيث تتعلم الروح أن الحب الحقيقي ليس مجرد شعور عابر، بل هو فعل، هو

خدمة، هو صبر، هو قدرة على منح الآخرين نورك حتى ولو لم يبقَ لك شيء وفي كل مساء، حين تهدأ الرياح، وتنساب أشعة الشمس الأخيرة عبر نوافذ البيت، يصبح المكان أشبه بمكتبة ضخمة، تحتوي على كتب لا تُقرأ بالحروف، بل تُقرأ بالقلوب ، هناك دروس عن التضحية، عن الصبر، عن الأمل، عن الفرح الذي يختبئ خلف دمعة، وعن القوة التي تنمو من خلال التعاون والمشاركة ، كل صوت، حتى أهدأ همسة، وكل حركة، حتى أبسط إيماءة، كانت تُضاف إلى هذه المكتبة، فتزيد من ثقلها الروحي، وتجعلها ملاذًا لكل من يبحث عن معنى الحياة في عالم يبدو أحيانًا بلا معنى والساحة، التي شهدت انصهار الضحكات بالدموع، وتحولت إلى مسرح صغير لكل قصص الإخلاص، لم تعد مجرد فضاء مفتوح، بل أصبحت قلبًا نابضًا بالحياة ، يُمكن للمرء أن يسمع فيها صدى الأقدام التي حملت الطعام والماء، وصدى الأيدي التي مدت المساعدة لكل محتاج، وصدى القلوب التي ارتجفت شوقًا لخدمة الآخرين وحتى بعد أن يعود الصمت، يظل صدى هذا العطاء حاضرًا، كأنه موسيقى خفية تُلحنها الأرواح نفسها.

ويظل عليّ، في أعماق قلبه، يحمل يقينًا راسخًا: أن ما عاشه لم يكن مجرد حدثٍ عابر، بل ميلاد جديد للروح، وتوسيع لآفاق قلبه وتجربة حياة كاملة ، كل لحظة فيها كانت مدرسة، وكل ابتسامة كانت درسًا، وكل دمعة كانت شهادة وهكذا، صار البيت ليس مجرد بيت، بل طريقًا، والطريق صار مدرسة، والحسين « عليه السلام » صار منارة لا تنطفئ، نورها يمتد في الزمن والوجدان، ينير كل مكان يمر به الإنسان، مهما كانت خطاه متعثرة، ومهما كان الليل طويلاً مظلمًا والأيام، حين تعود لتُكرر نفسها في كل عام تحمل معها عبق الذكرى، وحنين الخطوات الماضية، ووشوشة الدعاء الذي بقي محفورًا في الزوايا، فتتحول الذكريات إلى إرث حي، لا يُمحى، ولا يشيخ، بل يزداد عمقًا ووضوحًا مع مرور الزمن ، كل أربعين، حين يعانق الزائر الطريق، ويخطو على الأرض نفسها، يشعر بأن ما يلمسه ليس مجرد تراب، بل قلب ينبض، وحب متجدد، وعطاء مستمر وهكذا يصبح البيت والمكان والطريق والحسين « عليه السلام » جميعًا رسالة واحدة : أن الحياة تُعاش بالإخلاص، أن العطاء لا ينتهي، وأن الحب الحقيقي ليس كلمات تُقال، بل أفعال تُمارس، وتضحيات تُقدَّم بصمت، وبقلب حاضر، وعقل

واعٍ، وروح متصلة بالآخرين ويصبح كل من مرّ بالبيت جزءًا من هذه الرسالة حاملًا معها نورًا يمكن أن يضيء حياة غيره، حتى لو لم يُدرِك هو نفسه مدى تأثيره.

وفي هذا الوعي الجديد، يشعر الإنسان أن الزمن لا يسرق الذكريات، بل يثريها وكل ذكرى خدمة، وكل لمسة رحمة، وكل ابتسامة، تصبح جزءًا من هالة لا تُرى، لكنها تُشعر، تجعل القلب أكبر وأكثر قدرة على المحبة، وتجعل الروح أكثر عمقًا، وأكثر استعدادًا للتضحية، وأكثر قدرة على فهم معنى الحياة الحقيقي : العطاء دون مقابل، والخدمة دون انتظار، والحب الذي لا يموت.

يبقى البيت، رغم صمته الظاهر، حيًا أكثر من أي وقت مضى ليس فقط كهيكل من طين وحجارة، بل ككائن نابض يتنفس مع كل من عاش فيه، يحمل في جدرانه كل الذكريات، وكل الهمسات وكل النبضات التي مرت على أعتابه ، كل جدار فيه يحكي حكاية؛ ليس حكاية حدثٍ واحدٍ، بل سلسلة من القصص التي تتداخل لتشكل تاريخًا حيًا، تاريخًا يتنفس ويكبر مع الزمن، ويزداد عمقًا كلما تعمقنا نحن في فهمه ، كل ركن فيه يحمل درسًا؛ ليس مجرد درسٍ نظري أو تعليم، بل حكمة صاغتها الحياة نفسها

صاغتها الأيدي التي ربتت على الطين، وصاغتها القلوب التي عاشت مع المكان، ضحكت فيه، وبكت، وآمنت أن وجودها هنا له معنى أعمق من مجرد وجودٍ مادي.

كل خطوة على أرضه كانت نبضة قلب، وكل نظرة إلى نافذته كانت شعورًا بالطمأنينة، وكل أصغر حركة فيه كانت تعبيرًا عن الحب الصامت الذي يربط الإنسان بمكانه ،كل يوم خدم فيه الناس صار فصلًا جديدًا في كتاب الحياة، كتابٍ لا يُغلق أبدًا، لأنه مكتوب على صفحات الروح، وليس على صفحات الورق ،إنه كتاب لا يعرف النهاية، لا يعرف الفناء، بل يزداد كثافة وغنى كلما تقدم الزمن، وكلما مرت أجيال عليه وهكذا، يصبح المكان أكثر من مجرد جغرافيا؛ يصبح قلبًا وروحًا يصبح صوتًا وهدوءًا، يصبح عطاءً ونورًا، يصبح ذاكرة جماعية تمثل كل من مرّ عليه، كل من مرّ وترك أثره، سواء كان صغيرًا كابتسامة أو كبيرًا كعملٍ كامل من خدمة وإخلاص ، يصبح البيت متاهة من العواطف، متاهة من الذكريات، متاهة من الدروس والحكايات، ولا يزول، لأنه كتب بالحياة وبالحب، وليس بالحبر على الورق.

عندما تدخل إلى هذا البيت، تشعر وكأن الزمن قد توقف؛ كل شيء فيه يشع بالحياة، حتى الصمت فيه له معنى ، الصمت ليس فراغًا، بل هو حضن لكل ما عاشه البيت، هو موسيقى خفية لكل الأحلام والآمال التي تمسكت بالجدران، بكل الزوايا، بكل الطين الذي أصبح شاهدًا على مرور الزمن ، وفي الصمت، تسمع أصوات الماضي، أصوات خطوات من أحبوا المكان، أصوات ضحكات اختلطت بدموع، أصوات أرواح صعدت وخرّدت لتصبح جزءًا من المكان، جزءًا من هويته.

الجدران، إن نظرت إليها بعين القلب، لا تقتصر على كونها حواجز مادية، بل هي صفحات نُسخت عليها قصص الشجاعة والإخلاص، والصبر، والحب الذي لا يموت ، كل صخرة، كل شرفة كل زاوية، تحوي رسائل لا تحتاج إلى كلمات، لأنها تُقرأ مباشرة بروحك قبل عقلك ، حتى الأبواب القديمة، التي صدأتها الأيام تتحدث عن رحيل وحضور، عن وداع ولقاء، عن ألم وفرح عن انتظار وصبر... كل شيء فيها أصبح لغة خاصة، لغة لا يعرفها إلا من عاش الحب مع المكان وفي كل فصلٍ من فصول هذا

البيت يوجد درس عن الحياة : عن كيف يمكن للصغير أن يصبح كبيرًا...؟

كيف يمكن للأقل أن يكون أكثر...؟

كيف يمكن للعادي أن يتحول إلى أسطورة حقيقية في قلب كل من يعرفه...؟

البيت يعلم الصبر من خلال الانتظار، يعلم الحب من خلال العطاء، يعلم الوفاء من خلال الذاكرة، يعلم القوة من خلال استمرار الحياة فيه رغم كل الظروف.

ليس فقط البيت حيًّا بسبب ما يحمله من الماضي، بل لأنه يستمر في إلهام الحاضرين، كل من يطرق بابه، كل من يمرّ بجواره، كل من يلتقط لحظة هدوء على عتباته ، إنه يهمس بأن الحياة يمكن أن تكون أجمل حين تُعاش بمحبة، حين تُعاش بفهم، حين تُعاش بالإخلاص، حين تُعاش بصدقٍ مع نفسك ومع الآخرين ، هذا البيت، بصمته، بهدوئه، بصفائه، هو رسالة مستمرة للعالم، رسالة تقول : « الحياة ليست مجرد مرور عابر، وليست مجرد أيام تتوالى بل هي بناء، هي تاريخ، هي حب، هي أثر، هي نور ».

يبقى البيت حيًّا لأن ما يحمله من ذكريات، من دروس، من لحظات صغيرة لكنها عظيمة، لا يمكن لأي شخص أو زمن أن يمحوه ،ويبقى حيًّا لأنه جزء من القلوب، لأنه جزء من الروح، لأنه جزء من الإنسان الذي يعرف معنى الوجود الحقيقي : أن يعيش أن يحب، أن يخدم، أن يعطي، وأن يحفظ أثره في هذا العالم كما يحفظ البيت أثر كل من مرّ فيه، كما يظل البيت حاضنًا لكل شيء، مهما طال الزمن، مهما تغير الناس، مهما حاول الزمن أن ينسى.

صَدَرَ للمؤلفِ

صدرت للمؤلف رافد حميد فرج القاضي المؤلفات الآتية :

1- موسوعة الحقائق الساطعات ، كتاب في علم النسب، الطبعة الأولى، 2013 م ، مطابع المستقبل ، بيروت – لبنان.

2- الحسن راية السلام ، ديوان شعر ، الطبعة الأولى، 2014 م مطابع دار الوارث للطباعة والنشر ، كربلاء – العراق.

3- الحسين شجرة الشهادة ، ديوان شعر ، الطبعة الأولى، 2014 م مطابع دار الوارث للطباعة والنشر ، كربلاء – العراق.

4- رسالة الحقوق للإمام زين العابدين والاعلان العالمي لحقوق الانسان « دراسة مقارنة » كتاب في حقوق الانسان ، الطبعة الأولى 2015 م ، مطابع دار الوارث للطباعة والنشر ، كربلاء – العراق.

5- مملكة النور ، ديوان شعر، الطبعة الأولى، 2015 م ، مطابع دار الكفيل للطباعة والنشر ، كربلاء – العراق.

6- الأحمد الخامس، ديوان شعر، الطبعة الأولى، 2016 م ، مطابع دار الكفيل للطباعة والنشر ، كربلاء – العراق.

7- الهاتف الأخير ، رواية ، الطبعة الأولى، 2026 م ، مطبعة دار السرد للطباعة والنشر ، بغداد – العراق.

8- أوتار الرسالة ، ديوان شعر، الطبعة الأولى، 2026 م ، مطبعة دار السرد للطباعة والنشر ، بغداد – العراق

9- بلاغة ما بعد القول ، ديوان شعر ، الطبعة الأولى، 2026 م مطبعة دار السرد للطباعة والنشر ، بغداد – العراق.

10- حين يغار المشمش ، رواية ، الطبعة الأولى، 2026 م مطبعة دار السرد للطباعة والنشر ، بغداد – العراق.

المحتويات

قريةُ فَرَج..... 5.
بيتُ العدالةِ..... 38.
روحُ الرّحمة..... 85.
مَلاذُ الأرواح..... 109.
خِدمة الزائرين..... 146.
صدر للمؤلف..... 170.
المحتويات..... 172.